فصولٌ في تقرير التّوحيدِ والعبادةِ من الكتابِ والسنّةِ

أعدّه

يحيى بن عبد الله الثمالي

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين أجمعين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد: فإن علم الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدً رسول الله ﷺ أهم وأجل علم من علوم الشريعة، ولا يصلح دين عبد ويستقيم، حتى تصلح هذه الشهادة عنده وتستقيم.

ولهذا كانت هذه الشهادة العظيمة (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ﷺ الركن الأول من أركان الإسلام.

وقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى النطق بهذه الكلمة العظيمة باللسان، والتحقق بها تصديقا وعملاً، وعامة أهل مكة يمتنعون من ذلك؛ لأنهم يعلمون معنى هذه الكلمة إذا نطقوا بها، ويدركون ما يلزمهم من الامتثال للوازمها وما دلت عليه، ولم يستجب له إلا القليل، ومع استمرار النبي ﷺ في دعوته هذه، وصبره الطويل على أولئك القوم، فتح الله ﷻ قلوب كثير منهم للنطق بهذه الكلمة، والتحقق بها قولاً وعملاً، وبقي ﷺ يجاهد الناس لإعلاء هذه الكلمة حتى أكمل الله تعالى به الدين وأتم به النعمة، فجزاه الله أفضل ما جزى به نبياً عن أمته.

ثم نهج صحبه الكرام من بعده هذا المنهج، وسلكوا هذا الطريق في بيان الدين لمن بعدهم، على هذه الجادة المستقيمة = ترسيخ معنى هذه الكلمة العظيمة في نفوس الناس، والذب عنها، وبيان ما يناقضها ويخالفها، وجهاد الناس من أجلها، حتى فتحوا كثيراً من البلدان والأمصار، ودخل الناس في دين الله أفواجا محققين معنى هذه الكلمة، ممتثلين لما دلت عليه، مبتعدين عن كل قول وعمل يناقضها، أو يقلل من كمالها.

ثم جاء التابعون ومَن بعدهم، وسلكوا هذا المسلك، في الدعوة والتعليم والبيان، معتقدين أنه لا صحة لإسلام من لم يأت بهذه الكلمة العظيمة على وجهها الصحيح، عارفاً بمعناها عاملاً بمقتضاها، مبتعداً عن كل قول وفعل يناقضها، أو يقلل من شأنها، وقد اجتهد العلماء منهم في الكلام على ذلك وبيانه في مؤلفاتهم المتنوعة، فنجد من ألف منهم في تفسير كلام الله تبارك وتعالى لا يمر بآية تتكلم عن العبادة، أو تذكر هذه الكلمة، إلا ويشيرون إلى ما تقتضيه وتدل عليه، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

وقد قام المحدثون منهم، بجهد في هذا الباب، فألفوا في ذلك وكتبوا، فمنهم من أفرد كتابا في التوحيد كما فعل الإمام ابن خزيمة، وابن منده، رحمهما الله تعالى، ومنهم ذكره ضمن كتاب، كما صنع الإمام البخاري عليه رحمة الله تعالى في جامعه الصحيح.

ومنهم من اشتغل بالرد على أهل البدع الذين ترجع بدعهم إلى الطعن في هذه الكلمة، والتقليل من شأنها، وتلك الكتب والردود مشهورة معلومة.

ولم يزل العلماء رحمهم الله تعالى على مر العصور والأزمنة، وإلى يومنا هذا يكتبون ويؤلفون ويتكلمون في بيان معنى هذه الكلمة العظيمة، ولوازمها ومقتضاها، ونواقضها، وما يفسدها على صاحبها، وهذا الصنيع لا شك أنه من أعظم أنواع الجهاد، وأفضل الأعمال، فإنه لا خير في دعوة ولا عبادة لا تقوم على هذا الأساس المتين.

قال العلامة عبد الرحمن بن يحيى المُعلِّمِي اليماني (ت١٣٨٦) رحمه الله تعالى: الغالب أن الجاهل بمعنى (لا إله إلا الله) يكون جاهلاً بحقيقة التوحيد، ومن كان كذلك = يُخشى عليه أن يكون مشركاً وهو لا يشعر، أو أن يَعرض له الشرك فيقبله وهو لا يدري، أو أن يرمي غيره من المسلمين بالشرك، وكلا الأمرين خطر شديد[١].

وقد أدرك الشيطان الرجيم عظيم أثر هذه الكلمة على قائلها، وأن التحقق بها قولاً وعملاً سبب لنجاة صاحبها يوم العرض الأكبر على الله تعالى، فأخذ في التلبيس على الناس فيما يتعلق بمعنى هذه الكلمة، وتبعه على ذلك أولياؤه من الإنس، فخرج من هذه المدرسة الشيطانية علماء أضلوا العامة، يتكلمون بهذه الكلمة، ويشرحون للناس معناها، شرحاً لا يخرج قائلها مما هو فيه من عمى الجهالة، حتى عمي كثير من المسلمين (وللأسف الشديد) عن المعنى الحقيقي لهذه الكلمة، فلم تعد هذه الكلمة ترشدهم إلى الغاية الحقيقية من خلقهم، فترى الواحد منهم يردد هذه الكلمة ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، وهو مقيم على عبادة غير الله تعالى، والتعلق بالمخلوقين في باب جلب النفع ودفع الضر، فيما لا يقدر على جلبه ودفعه إلا الله تبارك وتعالى، فماذا تغني عنهم هذه الكلمة العظيمة التي يرددونها بألسنتهم، دون فهم ومعرفة لمدلولها، فكم سمعنا وقرأنا من يقرر للناس أن معنى هذه الكلمة العظيمة (لا إله إلا

(١) رفع الاشتباه عن العبادة والإله، للمعلمي: ٣٤.

الله) أي: لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله تعالى، وقد جاء في الخبر (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)[٢] .

وهنا سؤال في غاية الأهمية، وهو: لو أن المراد بهذه الكلمة هذا المعنى الذي يقرره من لم يفهم حقيقة معنى هذه الكلمة العظيمة، فما هو الفرق بين قائل هذه الكلمة الذي يعتقد هذا المعنى الفاسد، وبين كفار مكة الذين بعث الله تعالى إليهم نبينا محمداً ﷺ فإنهم كانوا يعلمون ويعتقدون أن الله هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله﴾ يونس (٣١) وقال جل ذكره ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ الزخرف (٨٧) والآيات بهذا المعنى كثيرة، فلم يكن عند أهل مكة شك في الربوبية، وأن الرب جل وعلا هو الخالق البارئ المصور الرزاق ذو القوة المتين.

وهل يظن عاقل أن الله تبارك وتعالى حينما يقول لنبيه ﷺ ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ محمد (١٩) أنه يريد منه أن يعلم أن الله هو الذي خلقه ورزقه ورباه بالنعم؟.

وهل يعتقد عارف أن النبي ﷺ مكث في مكة دهراً يقول للناس: ﴿يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا﴾[٣] أتراه يأمرهم بأن يُقروا بأن الله سبحانه هو الذي خلقهم ورزقهم ....

ومن تأمل القرآن العظيم يجد أن النزاع بين جميع الرسل وأقوامهم، ليس في مسألة إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، وإنما النزاع بينهم وبين أقوامهم = إنما هو بسبب المعنى الحقيقي الصحيح لهذه الكلمة، وهذا هو الذي ذكره الله تعالى عن أهل مكة حينما قالوا ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على ءالهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾ ص (٥-٧) فالقضية ليست في الإقرار والاعتراف بالربوبية، ومن هو الخالق الرازق، وإنما الأمر شيء آخر فهمه المشركون، مُؤداه أنهم إذا نطقوا بهذه الكلمة العظيمة = فعليهم أن ينبذوا الأصنام والأوثان، وسائر ما يتعلقون به من دون الله تبارك وتعالى، وأن يُخلصوا توجههم إلى الله تبارك وتعالى، وأن لا تتعلق قلوبهم بغير الله تبارك وتعالى، فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

---

(٢) الترمذي في سننه (٢٢٢٩) وانظر كتاب: الألوهية في العقائد الشعبية على ضوء الكتاب والسنة، لعبد السلام البسيوني. فقد ذكر فيه عجائب وغرائب من أحوال المسلمين في بعض الأمصار، وكيف لعبت بهم الشياطين، واجتالتهم عن دينهم.

(٣) أحمد في المسند (١٦٠٢٣) بسند جيد.

ولهذا قال العلامة أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت٥٤٨) رحمه الله تعالى: لم يَرد التكليف بمعرفة وجود الصانع، وإنما ورد بمعرفة التوحيد، ونفي الشريك (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله)[٤] ولهذا جعل محل النزاع بين الرسل وبين الخلق في التوحيد[٥].

وقال العلامة محمود شكري الألوسي (ت١٣٤٢) رحمه الله تعالى: وأما توحيد الألوهية فهو: إفراد العبادة لله الواحد الصمد، لأن الإله من يُقصد للعبادة ... إذا علمت هذا تبين لك أن المعركة بين أهل التوحيد والمشركين في الألوهية فقط[٦].

والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلا تزال طائفة من هذه الأمة المباركة، حاملة لواء الدعوة والبيان على بصيرة من الرحمن، تبين للناس الحق في العقيدة والعبادة والعمل، وجميع ما يهم المسلمين في حياتهم، مؤمنة بأن سعادة المسلمين العاجلة والآجلة لا تكون إلا بتحقيق معنى هذه الكلمة العظيمة قولاً، واعتقاداً وعملاً، محذرة من كل ما يناقض هذه الكلمة مناقضة كلية، أو يُضعف شأنها في قلب قائلها، متحملة في سبيل ذلك كل ما تلاقيه من الأذى، همّها الوحيد: أن تسير على هدي نبيها ﷺ في الدعوة والبلاغ، وقد أخبر النبي ﷺ عن هذه الطائفة بقوله ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك)[٧] .

وإننا نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا ممن يتبع ولا يبدع، ويبذل كل جهده ووقته في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى على بصيرة، بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، إلى توحيد الله تبارك وتعالى، وفهم هذه الكلمة العظيمة، والعمل بمقتضاها، والبعد عن كل ما يضادها ويناقضها، وأوصي إخواني المسلمين عامة إلى مراجعة أنفسهم تجاه هذه الكلمة، وهل فهموا معناها، وحققوا لوازمها ومقتضاها، وهل سَلِموا مما يناقضها، فإن من مات على هذه الكلمة دخل الجنة، كما أُذكّر علماء المسلمين، وطلاب العلم، والمشتغلين بالدعوة إلى الله تعالى، بالاهتمام بهذه الكلمة العظيمة، وتعليم الناس معناها الصحيح، والدعوة لتحقيقها، والحذر من الأقوال والتفسيرات التي تخرج هذه الكلمة عن مدلولها الحقيقي، ومعناها الصحيح.

---

(٤) البخاري في صحيحه (٣٩٢، ٢٩٤٦) ومسلم في صحيحه (٢١).

(٥) نهاية الإقدام في علم الكلام: ص ٧٤.

(٦) فتح المنان: ص: ٢٩٢.

(٧) مسلم في صحيحه (١٩٢٠).

ولنستحضر وصية الإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨) رحمه الله تعالى، لمحمد بن رافع السَّلامي (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى، حين قال له فيما كتب: فثمّة طريق قد بقي، لا أكتمه عنك، وهو كثرة الدعاء والاستعانة بالله العظيم في آناء الليل والنهار، وكثرة الإلحاح على مولاك بكل دعاء مأثور تستحضره، أو غير مأثور، وعقيب الخمس، في أن يصلحك ويوفقك[٨]. فإن الدعاء من أعظم العبادات وأجل القربات، وبه يُعان العبد على قضاء وتيسير الحاجات.

وبعد: قد اجتهدت فيما أوردت في هذا الكتاب من فصول، مستدلاً في كل فصل بما يسره الله تعالى من الآيات القرآنية، والأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ مُورداً أقوال العلماء في بيان معنى ما أوردته، محاولاً تسهيل العبارة لتكون قريبة من فهم العامة، مبتعداً عن التكلف وتشقيق الكلام، والدخول في تفصيلات ونقاشات بعيدة عن ظواهر الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة، مُتحرياً الاختصار ما أمكن، حيث إن هذا الكتاب موجه أصلاً لعامة المسلمين، فلا يَستغرب القارئ الكريم إعراضي عن ذكر كثير من المسائل والتفاصيل، وهي وإن كانت في غاية الأهمية، إلا أنها مخدومة بكتابات كثيرة، والحمد الله، وقد جعلت هذا الكتاب المختصر في: مدخل، وثلاثة أبواب، وخاتمة:

فأما المدخل، ففيه أحد عشر فصلاً.

وأما الأبواب الثلاثة، فهي:

الباب الأول: أفعال ربنا سبحانه وتعالى، وفيه ثلاثة فصول.

الباب الثاني: أسماء ربنا سبحانه وتعالى وصفاته، وكيف يكون المسلم مؤمنا بأسماء الله وصفاته على طريقة سلفنا الصالحين، وفيه فصلان.

الباب الثالث: ما يجب لله تبارك وتعالى من الحقوق على عباده، وفيه ثلاثة وعشرون فصلاً.

وأما الخاتمة ففيها ثلاثة فصول.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقني للصواب في القول والعمل، وأن يتجاوز عن التقصير والزلل، وأن يرزقني الإخلاص في القول والعمل، وأن ينفع بما كتبت وأوردت، وأن يجعله حجة لي يوم لا ينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

---

(٨) وصية الذهبي لمحمد بن رافع السلامي: ص١٨.

وصلى الله وسلم وبارك على سيد الأنبياء والمرسلين، وإمام الموحدين، وأفضل الخلق أجمعين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو ربه الجليل

يحيى بن عبد الله الثُّمالي

مدخلٌ، وفيه أحد عشر فصلاً

١-فصل في أصول الإيمان وأركانه.

٢-فصل في أصول الإسلام وأركانه.

٣-فصل في بيان أن الإسلام هو الدين المقبول عند الله تعالى.

٤-فصل في بيان أن الأعمال من الإيمان.

٥-فصل في بيان فضل التوحيد على صاحبه.

٦-فصل في بيان أن الله تعالى فطر الناس على التوحيد والإيمان به.

٧-فصل في بيان أن الناس كانوا على التوحيد من لدن آدم ﷺ إلى أن ظهر الشرك في قوم نوح، فأرسل الله إليهم نوحاً ﷺ.

٨-فصل في بيان معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ.

٩-فصل في بيان أن جميع الرسل والأنبياء دعوا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده.

١٠-فصل في بيان أن الشرك مُحبط للأعمال، وأن صاحبه إذا مات عليه فإن الله لا يغفر له.

١١-فصل في بيان أن المشركين كانوا يعتقدون أن معبوداتهم تشفع لهم عند الله تعالى وتقربهم إليه زلفى.

فإلى هذه الفصول:

١-فصل في أصول الإيمان وأركانه.

الإيمان في لسان العرب: يعني التصديق، وأصل الأمن: طمأنينة النفس، وزوال الخوف[٩]. فمن آمن حصل له الأمن، وطمأنينة النفس، وزال عنه الخوف بإذن الله تعالى.

وهذه الأركان ستة، مذكورة في القرآن والسنة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ...﴾ البقرة (١٧٧).

وقال تعالى ﴿إنا كل شيء خلقنه بقدر﴾ القمر (٤٩).

وقد أجاب النبي ﷺ جبريل عليه السلام حينما سأله عن الإيمان؟ بقوله (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[١٠] .

ففي هاتين الآيتين والحديث: بيان لأصول الإيمان، أو ما يسميه العلماء: أركان الإيمان، وهي ستة:

أولها: الإيمان بالله تبارك وتعالى رباً معبوداً مطاعاً، له الأسماء الحسنى والصفات العلى.

والثاني: الإيمان بالملائكة، وأنهم عباد مكرمون، موكلون بأعمال، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

والثالث: الإيمان بالكتب، وأن الله جل وعلا أنزل كتباً على رسله الكرام، تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين.

والرابع: الإيمان بالرسل: وأن الله تعالى أرسل رسلاً إلى أهل الأرض، مبشرين ومنذرين، بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة.

والخامس: الإيمان باليوم الآخر، وأن الله يبعث الخلق للجزاء والحساب، فريق في الجنة وفريق في السعير.

---

(٩) المفردات في غريب القرآن: ص: ٩٠، لسان العرب: ١/١٤٠، تاج العروس: ١٨/٢٤.

(١٠) مسلم في صحيحه (٨).

والسادس: الإيمان بالقدر خيره وشره، وأن ما أصاب المخلوق لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه.

وليعلم الموفق أن هذه الأركان متعلقة بالاعتقاد، فمن أراد أن يَصدُق في إيمانه فليصدّق بها كلها، فإن من لم يؤمن بجميعها فلا قيمة لإيمانه، ولا حقيقة لدعواه.

والكلام عن هذه الأركان وما فيها من التفصيل يطول، ويكفي فيها الإيمان المجمل، ومن أراد التفصيل فعليه بالمطولات في شرحها وبيانها، فقد بين العلماء كل ما يتعلق بها.

٢-فصل في أصول الإسلام وأركانه.

الإسلام عند العرب في كلامها معناه: الانقياد والخضوع والإذعان، والاستسلام والامتثال لأمر الآمر ونهيه، بلا اعتراض[١١].

قال النبي ﷺ: (بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً)[١٢].

ففي هذا الحديث بيان لأصول الإسلام، أو ما يسميه العلماء: أركان الإسلام، وهي: خمسة:

أولها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ وهاتان الشهادتان ركن واحد، لكونهما متلازمتين، لا تنفك إحداهما عن الأخرى.

وهذا الركن هو موضوع هذا الكتاب، الذي أسأل الله تعالى أن يرزقني فيه التوفيق والسداد والإخلاص، والتمام على أحسن حال.

والثاني: إقام الصلاة، والمراد بها الصلوات الخمس، وشأنها عند الله تعالى كبير، والمفرط في أدائها على خطر عظيم.

والثالث: إيتاء الزكاة، لمن توفرت فيه شروطها، وبها تزكو النفوس وتطهر الأموال، والمتساهل فيها متوعد بعذاب عظيم.

والرابع: صوم رمضان، الشهر العظيم، الذي جعل الله صيامه مُكفّراً لما تقدم من الذنوب، وصائمه من المتقين.

الخامس: حج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً مرة في العمر، ومن حج ولم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

والكلام عن هذه الأركان وما فيها من الأحكام والتفصيلات يطول، ومما ينبه إليه أن هذه الأركان عملية متعلقة بفعل الجوارح، يتعين على كل مكلف أن يجاهد نفسه على الإتيان بها على أكمل وجه، ليفوز بالنعيم المقيم.

---

(١١) لسان العرب: ٢٩٣/١٢، تاج العروس: ٣٧١/٣٢.

(١٢) البخاري في صحيحه (٨) ومسلم في صحيحه (١٦).

٣-فصل في بيان أن الإسلام هو الدين المقبول عند الله تعالى.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إنّ الدّين عند الله الإسلام﴾ آل عمران (١٩).

وقال سبحانه: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ آل عمران (٨٥).

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: إن الدين عند الله الإسلام: الطاعة له، وإقرار الألسن والقلوب له بالعبودية والذلة، وانقيادها له بالطاعة فيما أمر ونهى، وتذللها له بذلك، من غير استكبار عليه، ولا انحراف عنه، دون إشراك غيره من خلقه معه في العبودة والألوهة(١٣).

وعن قتادة رحمه الله تعالى قال: الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودل عليه أولياءه، لا يقبل غيره، ولا يجزي إلا به(١٤).

وعن الضحاك رحمه الله تعالى قال: لا يُقبل من جميع الخلق من أهل الأديان ديناً غير دين الإسلام، ومن يتدين غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين، أي المغبونين، لأنه ترك منزله في الجنة، واختار منزله في النار(١٥).

وقال العلامة محمد صديق حسن خان القِنّوجي (ت ١٣٠٧) رحمه الله تعالى: (فلن يقبل منه) يعني أن الدين المقبول عند الله، هو دين الإسلام، وأن كل دين سواه غير مقبول؛ لأن الدين الصحيح ما يَرضى الله عن فاعله ويثيبه عليه(١٦).

وقد دلت آيات القرآن الكريم على أن الدين الحق، والمقبول من الخلق إنما هو الإسلام لا غير.

وقد يظن من قلّ علمه أن دين الإسلام إنما هو الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ دون غيره من الأنبياء والرسل.

---

(١٣) جامع البيان، سورة آل عمران آية (١٩).

(١٤) جامع البيان، سورة آل عمران آية (١٩).

(١٥) تفسير السمرقندي، سورة آل عمران، آية (٨٥).

(١٦) فتح البيان، سورة آل عمران، آية (٨٥).

والحق أن الإسلام دين جميع الأنبياء والمرسلين، كما دل على ذلك القرآن الكريم، على ألسنة أنبياء الله الكرام، وبإخبار الله تعالى عن ذلك.

ومن ذلك: ما ذكره الله تعالى عن نوح ﷺ أنه قال لقومه: ﴿وأُمرت أن أكون من المسلمين﴾ يونس (٧٢).

وأمر الله تعالى إبراهيم ﷺ بأن يكون من المسلمين، وقد أقر بذلك: ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ البقرة (١٣١).

وإبراهيم وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما، يدعوان الله تعالى بأن يكونا مسلمين: ﴿ربنا واجعلنا مُسلِمَين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ البقرة (١٢٨).

ويوصي إبراهيم ويعقوب عليهما الصلاة والسلام أبناءهم بقولهم: ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ البقرة (١٣٢).

ويقول الله تعالى عن إبراهيم ﷺ: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ آل عمران (٦٧).

ويُجيب أبناء يعقوب ﷺ أباهم بقولهم: ﴿نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون﴾ البقرة (١٣٣).

وموسى ﷺ يقول لقومه: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن منتم مسلمين﴾ يونس (٨٤).

وقال سحرة فرعون بعد أن أعلنوا إيمانهم بالله تعالى: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ الأعراف (١٢٦).

والحواريون يقولون لعيسى ﷺ: ﴿آمنا واشهد بأنا مسلمون﴾ آل عمران (٥٢).

وحين سمع فريق من أهل الكتاب القرآن، قالوا: ﴿آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾ القصص (٥٣).

فهذه الآيات ظاهرة الدلالة فيما سبق تقريره، والحمد لله رب العالمين.

٤-فصل في بيان أن الأعمال من الإيمان.

المراد بهذا الفصل: أن العمل داخل في الإيمان، وأن الإيمان المُدّعى بلا عمل، غير نافع لصاحبه، فلا بد من العمل مع الإيمان.

قال عمير بن حبيب وكانت له صحبة رضي الله عنه: إن للإيمان زيادة ونقصاناً قيل: فما زيادته، قال: إذا ذكرنا الله عز وجل وحمدناه فذلك زيادته، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه[١٧].

وقال الإمام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام (ت١٥٧) رحمه الله تعالى: لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة، وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل، والعمل من الإيمان، والإيمان من العمل، وإنما الإيمان اسم جامع ... فمن آمن بلسانه، وعرف بقلبه، وصدق بعمله، فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن قال بلسانه، ولم يعرف بقلبه، ولم يصدقه بعمله، لم يقبل منه، وكان في الآخرة من الخاسرين[١٨].

وقال الإمام أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي (ت٢٢٤) رحمه الله تعالى: وهذه تسمية من كان يقول: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وسمى ثلاثة وثلاثين ومائة عالم، ثم قال: هؤلاء كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وهو قول أهل السنة، والمعمول به عندنا[١٩].

وجاء عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦) رحمه الله تعالى أنه قال: كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلا عمّن قال: الإيمان قول وعمل، ولم أكتب عمّن قال: الإيمان قول[٢٠].

وقال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله، المعروف بابن عبد البر (ت٤٦٣) رحمه الله تعالى: أجمع أهل الفقه والحديث: أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا

---

(١٧) المصنف لابن أبي شيبة: ١٦٠/٦ (٣٠٣٢٧) الشريعة للآجري: ٢٤١/١، ٢٦١، معالم التنزيل، سورة الأنفال، آية (١-٤).

(١٨) الإبانة الكبرى، لابن بطة (١٠٩٧) حلية الأولياء: ١٤٤/٦.

(١٩) الإبانة لابن بطة: ٨١٤/٢-٨٢٦ (١١١٧)

(٢٠) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، اللالكائي: ٩٥٩/٥.

بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان[٢١].

وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦) رحمه الله تعالى: اتفق الصحابة والتابعون، فمن بعدهم من علماء السنة، على أن الأعمال من الإيمان، وقالو: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة[٢٢].

قلت: وكلام السلف في هذا الفصل وبهذا المعنى كثيرٌ جداً، وقد استدلوا على ذلك بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة، ومنها الآية المشهورة:

قال الله تبارك وتعالى ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ البقرة (١٤٣).

قال القاضي العلامة الحسين بن الحسن أبو عبد الله الحَلِيمي (ت٤٠٣) رحمه الله تعالى، وهو يتكلم عن معنى ﴿إيمانكم﴾ في هذه الآية: أجمع المفسرون على أنه أراد: صلاتكم إلى بيت المقدس، فثبت أن الصلاة إيمان، وإذا ثبت ذلك؛ فكل طاعة إيمان، إذ لم أعلم فارقاً في هذه التسمية بين الصلاة وسائر العبادات[٢٣].

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرطُبي (ت٦٧١) رحمه الله تعالى: اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس ... فسمّى الصلاة إيماناً لاشتمالها على نية وقول وعمل[٢٤].

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦) رحمه الله تعالى في صحيحه: باب : الصلاة من الإيمان[٢٥].

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: (الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[٢٦] .

---

(٢١) التمهيد: ٢٣٨/٩.

(٢٢) شرح السنة: ٣٩/١.

(٢٣) المنهاج في شعب الإيمان: ٣٧/١.

(٢٤) الجامع لأحكام القرآن، سورة البقرة، آية (١٤٣).

(٢٥) صحيح البخاري: ١٦/١.

(٢٦) البخاري في صحيحه (٩) ومسلم في صحيحه (٣٥) واللفظ لمسلم.

والحديث دليل على دخول الطاعات في الإيمان، سواء كانت قولية، أم قلبية، أم عملية، فالإيمان أصل له شعب متعددة، وكل شعبة تسمى إيماناً، فالصلاة من الإيمان، والزكاة من الإيمان، والحج من الإيمان، وهكذا بقية الأعمال سواء كانت ظاهرة أم باطنة.

وخلاصة ما سبق: أن حقيقة الإيمان مركبة من أمور أربعة:

الأول: قول القلب: وهو تصديقه وإيقانه.

الثاني: قول اللسان، وهو النطق بالشهادتين، والإقرار بلوازمهما.

الثالث: عمل القلب: وهو النية والإخلاص والمحبة والانقياد، والإقبال على الله عز وجل، والتوكل عليه، ولوازم ذلك وتوابعه.

الرابع: عمل الجوارح: وهو ما لا يُؤدى إلا بها، كالقيام والركوع والسجود، وغير ذلك.

فإذا زالت هذه الأربعة، زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب، لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها، وكونها نافعة.

وإذا زال عمل القلب، مع اعتقاد التصديق، فهذا موضع المعركة بين أهل السنة والمرجئة، فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب، كما لم ينفع إبليس، وفرعون وقومه، واليهود والمشركين، الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول ﷺ بل ويقرون به سراً وجهراً، ويقولون: ليس بكاذب، ولكن لا نتبعه، ولا نؤمن به.

وخلاصة ما سبق، نقول: إن الإيمان قول باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالجوارح، فمن لم يأت بهذه الثلاثة فقد اختل إيمانه.

والقول بأنه يكفي في الإيمان نطق اللسان، أو اعتقاد القلب، أو نطق اللسان مع اعتقاد القلب دون عمل الجوارح، فهذه أقول لا يعرفها السلف، وإنما هي أقوال أهل البدع، نسأل الله تعالى العافية.

٥-فصل في بيان فضل التوحيد على صاحبه.

جاء في فضل التوحيد وإخلاص الدين لله تعالى نصوص شرعية كثيرة، تجعل المسلم الصادق يجتهد غاية الاجتهاد في تحقيق توحيده، بأن يفهم معنى كلمة التوحيد (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ) ويجتهد في العمل بمقتضاها، ومعرفة ما يضادها ويناقضها، ويحذر غاية الحذر من الوقوع في الشرك كبيره وصغيره، ومن هذه النصوص:

١-قال الله تعالى ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ الأنعام (٨٢).

والظلم في هذه الآية يُبينه ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ... شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: (ليس كما تظنون؛ إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾[٢٧] لقمان (١٣).

ففي هذه الآية الكريم العظيمة بيان من الله تعالى: أن هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله تبارك وتعالى، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة[٢٨] وكون الشرك ظلماً، لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وكونه عظيماً لما فيه من التسوية بين الخالق والمخلوق في التوجه والتعبد[٢٩] وهذا الفعل من أعظم المحرمات، كما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك ...)[٣٠].

فكيف يتحقق الأمن لمن كان ظالماً أعظم الظلم وأقبحه، ومن كان مذنباً أعظم الذنب وأشنعه، إنما الأمن التام في الدنيا والآخرة؛ لمن حقّق توحيده وأصلح عقيدته، واستقام على دينه، وأخلص عبادته لله رب العالمين.

وليعلم أن الأمن الكامل التام؛ لمن آتى بالتوحيد والعبادة والاستقامة على وجهها، ومن نقص = نقص أمنه، ومن ضعف إيمانه ضعف أمنه، فالكمال للكمال، والنقص للنقص، وكل بحسبه، والله المستعان، وعليه التكلان.

---

(٢٧) البخاري في صحيحه (٦٩٣٧) ومسلم في صحيحه (١٢٤).

(٢٨) تفسير ابن كثير، سورة الأنعام، آية (٨٢).

(٢٩) روح المعاني للألوسي، سورة لقمان، آية (١٣).

(٣٠) البخاري في صحيحه (٤٤٧٧) ومسلم في صحيحه (٨٦).

٢-عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)[٣١] .

فدل هذا الحديث على: أن من شهد بما جاء في هذا الحديث صادقاً من قلبه، موقناً بذلك = كانت تلك الشهادة سبباً في دخوله الجنة.

٣-عن عتبان بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: (فإن الله قد حرّم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)[٣٢] .

فدل هذا الحديث على أن الله تعالى حرم النار على من قال هذه الكلمة صادقاً مخلصاً، ومات عليها.

٤-عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة)[٣٣] .

ففي هذا الحديث بشارة عظيمة لمن مات على التوحيد، فإن الله تعالى سوف يكرمه بدخول الجنة، ويبعده عن النار.

وهذه الأحاديث: حديث جابر هذ، وحديث عتبان، وحديث عبادة قبله، وما جاء في معناها من الأحاديث، يجب أن تُفهم على نحو ما تقدم، من أن المتكلم بكلمة التوحيد مبتغياً بذلك وجه الله، إذا كان عالماً بمعناها، عاملا بمقتضاها، مبتعداً عن الشرك كبيره وصغيره، مستقيماً على السنة، مبتعداً عن البدعة، ومات على ذلك، فإن هذه الكلمة سوف تكون سبباً لدخوله الجنة ونجاته من النار، بل قد يُدخله الله الجنة بغير حساب، والنار عليه حرام، فنسأل الله تبارك وتعالى أن نكون منهم.

وليُعلم أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث وما جاء من نصوص أخرى في بيان أن بعض من مات على التوحيد ربما دخل النار، ومكث فيها ما شاء الله، ثم يُؤمر به إلى الجنة.

---

(٣١) البخاري في صحيحه (٣٤٣٥) ومسلم في صحيحه (٢٨).

(٣٢) البخاري في صحيحه (٤٢٥) ومسلم في صحيحه (٣٣).

(٣٣) البخاري في صحيحه (٣٤٣٥) ومسلم في صحيحه (٢٨).

وذلك أن العبد قد يموت موحداً، تائباً، سالماً من الذنوب، وقد يموت على شيء من الذنوب التي لا تُخرج صاحبها من الإيمان، وهذا الثاني هو المتوعد بنصوص الوعيد، وقد يتجاوز الله تعالى عن ذنوبه، ويغفرها له، كما دل على ذلك قول الله تعالى ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ النساء (٤٨، ١١٦) لأمور يعلمها الله تعالى، فيدخل الجنة دون أن يَمسّه شيء من العذاب.

وقد لا يغفر الله ذنوبه لأمور يعلمها الله تعالى، فيدخل النار، فيمكث فيها ما شاء الله تعالى ثم يخرج منها برحمة أرحم الراحمين، ثم يؤمر به إلى الجنة.

وحاصل معنى هذا الحديث وغيره مما جاء في معناه، أن من مات على التوحيد فإن مصيره إلى الجنة، سواء دخلها مع أول الداخلين، أو أنه دخل النار ثم أخرج منها بفضل توحيده، فإن النار لا يخلد فيها إلا أهلها الذين هم أهلها، الذين ماتوا على الشرك والكفر بالله تعالى، نسأل الله تعالى أن يعافينا والمسلمين أجمعين من دخول النار، وأن يكرمنا بدخول الجنة من غير حساب ولا عذاب[٣٤] .

وعلى حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (أتاني جبريل عليه السلام، فبشرني أنه من مات من أمتك، لا يُشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: وإن زنى، وإن سرق، قال وإن زنى وإن سرق)[٣٥] يقول الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦) رحمه الله تعالى: أما قوله ﷺ (وإن زنى وإن سرق) فهو حجة لمذهب أهل السنة أن أصحاب الكبائر لا يُقطع لهم بالنار، وأنهم إن دخلوها أخرجوا منها، وخُتم لهم بالخلود في الجنة[٣٦].

(٣٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ٥٢٤/٢، تفسير ابن كثير: ٤٥٢/٤.

(٣٥) البخاري في صحيحه (١٢٣٧) ومسلم في صحيحه (٩٤).

(٣٦) شرح النووي على مسلم: ٩٧/٢.

٦-فصل في بيان أن الله تعالى فطر الناس على التوحيد والإيمان به.

قال الله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ الروم (٣٠).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (كل مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تُنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء)[٣٧] .

وقال العلامة محمد بن أحمد ابن جُزيّ الكلبي الغرناطي (ت٧٤١) رحمه الله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين﴾ هو دين الإسلام، وإقامة الوجه عبارة عن الإقبال عليه والإخلاص فيه ... ﴿فطرت الله﴾ معناه خلقة الله، والمراد به دين الإسلام، لأن الله خلق الخلق عليه، إذ هو الذي تقتضيه عقولهم السليمة، وإنما كفر من كفر لعارض أخرجه عن أصل فطرته، كما قال رسول الله ﷺ (كل مولود يولد على الفطرة ...)[٣٨].

وقال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: يقول تعالى: فسدّد وجهك، واستمر على الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملّة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكمّلها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها؛ فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره[٣٩].

وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠) رحمه الله: الفطرة في الأصل: الخِلقة، والمراد بها هنا الملّة، وهي الإسلام والتوحيد ... والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم، وأنهم جميعاً مفطورون على ذلك، لولا عوارض تعرض لهم فيبقون بسببها على الكفر ... فكل فرد من أفراد الناس مفطور، أي: مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة ﷺ ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين، وهو الحق، والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب جمهور السلف[٤٠].

---

(٣٧) البخاري في صحيحه (١٣٨٥) ومسلم في صحيحه (٢٦٥٨) واللفظ للبخاري.

(٣٨) التسهيل لعلوم التنزيل، سورة الروم، آية (٣٠).

(٣٩) تفسير ابن كثير، سورة الروم، آية (٣٠).

(٤٠) فتح القدير، سورة الروم، آية (٣٠).

٧-فصل في بيان أن الناس كانوا على التوحيد من لدن آدم ﷺ إلى أن ظهر الشرك في قوم نوح، فأرسل الله إليهم نوحاً ﷺ.

قال الله تعالى ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ البقرة (٢١٣).

يرى كثير من المفسرين أن معنى الآية: أن الناس كانوا مجتمعين منذ عهد آدم عليه السلام على دين واحد، هو دين الإسلام، وظلوا على ذلك مدة عشرة قرون، فاختلفوا في دينهم، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله النبيين ينهون عن ذلك الكفر، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم من عذاب النار، وكان أولهم نوح ﷺ.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[٤١].

وعن قتادة، قال: كانوا على الهدى جميعاً، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فكان أول نبي بُعث: نوح[٤٢] ﷺ.

قال الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى، بعد أن أورد قول ابن عباس آنف الذكر، وقول آخر مروي عنه في معنى الآية، وأن المراد بها: كان الناس كفاراً، فبعث الله النبيين ... قال: والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم عليه السلام، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض[٤٣].

قلت: يؤيد هذا القول قول الله تبارك وتعالى ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا﴾ يونس (١٩).

فقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ فالظاهر من السياق بعدها: التنبيه على أن الناس كانوا على عبادة الله وحده وتوحيده.

---

(٤١) جامع البيان، سورة البقرة، آية (٢١٣) والحاكم في المستدرك (٤٠٠٩) وانظر السلسلة الصحيحة للألباني: ٨٥٤/٧.

(٤٢) جامع البيان، سورة البقرة، آية (٢١٣).

(٤٣) تفسير ابن كثير، سورة البقرة، آية (٢١٣).

قال الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت٥٩٧) رحمه الله تعالى: وأحسن الأقوال: أنهم كانوا على دين واحد موحدين، فاختلفوا وعبدوا الأصنام، فكان أول من بُعث إليهم نوح عليه السلام[٤٤].

(٤٤) زاد المسير، سورة يونس، آية (١٩).

٨-فصل في بيان معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ.

من المعلوم أن الإنسان لا يصح منه إسلام ولا يدخل فيه أصلاً حتى ينطق بهذه الشهادة العظيمة (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول لله) ﷺ فإذا تبين ذلك للمسلم ووفقه الله تعالى للنطق بهذا الكلمة، فإنه مطالب بأمور في غاية الأهمية، وهي:

أن يعلم معنى هذا الشهادة وما دلت عليه، وأن يعمل بمقتضاها ولوازمها، وأن يجتنب ما يناقضها ويبطلها، وهذا يستلزم من كل مسلم أن يبذل غاية جهده في تعلّم ذلك كله.

وفي هذا الفصل نبين معنى هذه الشهادة فنقول: هذه الكلمة العظيمة تنقسم إلى شقين:

أولهما: شهادة أن لا إله إلا الله، ومعناها: أن يشهد العبد بلسانه، ويعتقد بقلبه، أنه لا أحد يستحق العبادة إلا الله تعالى.

ولذلك يقول العلماء في معنى هذه الشهادة: لا معبود بحق إلا الله تعالى.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: يقول: لا معبود بحق تجوز عبادته، وتصلح الألوهة له إلا الله[٤٥].

وقال الإمام أبو محمد العز بن عبد السلام السُّلَمي (ت٦٦٠) رحمه الله تعالى: كلمة التوحيد تدل على التكليف بالواجب والحرام، إذ معناه: لا معبود بحق إلا الله[٤٦].

والشق الثاني: شهادة أن محمد رسول الله ﷺ وهذه الشهادة تعني:

تصديق النبي ﷺ فيما أخبر، وطاعته فيما نهى وأمر، وأن لا يُعبد الله تعالى إلا بما شرع[٤٧].

---

(٤٥) جامه البيان، سورة غافر، آية (٦٤) وانظر: نظم الدرر للبقاعي، سورة محمد، آية (١٩) والذخيرة، للقرافي: ٥٧/٢، الفتح المبين بشرح الأربعين، لابن حجر الهيتمي: ص: ٨٢.

(٤٦) الإمام في بيان أدلة الأحكام: ص: ١٦٨

(٤٧) انظر: تعظيم قدر الصلاة، للمروزي: ٦٥٢/٢، الشفاء، للقاضي عياض: ٦/٢، تفسير ابن كثير، سورة الكافرون، آية (٤).

وإنما قلنا في معنى شهادة أن لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله، فنريد بذلك أن نبين أن كل من عبد غير الله تعالى فعبادته ليست بحق وإنما هي باطل وافتراء، والذي يستحق العبادة بحق إنما هو الله سبحانه وتعالى، وهذا أمر لا يخالف فيه عاقل أبداً، وأدلته في القرآن والسنة أكثر من أن تحصر.

وأما ما ذكرنا من معنى شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ وأنها لا تصح إلا بما ذكرنا، من التصديق، والطاعة والانقياد، والمتابعة له.

فإن براهين ذلك وأدلته كثيرة متوافرة، وسأذكر شيئاً من ذلك، فأقول:

أما ما يتعلق بتصديقه ﷺ فإنه لا يمكن لأحد أن يدخل في الإسلام إلا إذا صدّق النبي ﷺ في كل ما جاء به عن الله تعالى، واعتقد أنه معصوم من الكذب.

قال تعالى: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾ الزمر (٣٣).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقول: من جاء بلا إله إلا الله ﴿وصدّق به﴾ يعني رسوله[٤٨].

وقال الله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يُوحى﴾ النجم (٣-٤).

قال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: أي: ما يقول قولاً عن هوى وغرض ... إنما يقول ما أُمر به، يبلغه إلى الناس كاملاً موفراً، من غير زيادة ولا نُقصان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إني لا أقول إلا حقاً)[٤٩] .

وأما ما يتعلق بطاعته ﷺ فإن الله تبارك وتعالى أمرنا بطاعتة طاعة مطلقة في آيات كثيرة، ومن ذلك أن الله تعالى قال: ﴿وأقيموا الصلوة وءاتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ النور (٥٦).

وجعل سبحانه طاعة الرسول ﷺ من طاعته، فقال سبحانه: ﴿من يُطع الرسول فقد أطاع الله﴾ النساء (٨٠).

وقال جل وعلا: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ الحشر (٧).

---

(٤٨) جامع البيان، سورة الزمر، آية (٣٣).

(٤٩) الترمذي في سننه (١٩٩٠) وصححه.

وأخبر جل وعلا أن من يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً، فقال تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾ الأحزاب (٣٦).

وعن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى) قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)[٥٠].

وأما ما يتعلق بمتابعته، وأن لا نعبد الله تعالى إلا بما جاءنا به هذا الرسول الكريم ﷺ فقد قال الله تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ الأعراف (٣).

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك الذين يعبدون الأصنام: اتبعوا أيها الناس ما جاءكم من عند ربكم بالبينات والهدى، وأعملوا بما أمركم به ربكم، ولا تتبعوا شيئاً من دونه، يعني: شيئاً غير ما أُنزل إليكم من ربكم. يقول: لا تتبعوا أمر أوليائكم الذين يأمرونكم بالشرك بالله وعبادة الأوثان، فإنهم يضلونكم ولا يهدونكم[٥١].

وقال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: أي: اقتفُوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب، أُنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره[٥٢].

وقد بين الله تعالى أن اتباع النبي ﷺ علامة على محبته سبحانه، فقال جل وعلا: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ آل عمران (٣١).

قال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية؛ فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله ... وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية[٥٣].

---

(٥٠) البخاري في صحيحه (٧٢٨٠).

(٥١) جامع البيان، سورة الأعراف، آية (٣).

(٥٢) تفسير ابن كثير، سورة الأعراف، آية (٣).

(٥٣) تفسير ابن كثير، سورة آل عمران، آية (٣١).

وقال الإمام محمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣) رحمه الله تعالى: يُؤخذ من هذه الآية الكريمة: أنّ علامة المحبة الصادقة لله ولرسوله ﷺ = هي اتباعه ﷺ فالذي يُخالفه ويّدعي أنه يُحبه فهو كاذب مفتر؛ إذ لو كان مُحباً له لأطاعه، ومعلوم عند العامة أن المحبة تستجلب الطاعة(٥٤).

ويقول سبحانه ﴿أم لهم شركاء شرعوا لم من الدين مالم يأذن به الله﴾ الشورى (٢١).

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠): يقول: ابتدعوا لهم من الدين مالم يُبَح لهم ابتداعه(٥٥).

وقال العلامة صدّيق حسن خان القِنّوجي (ت١٣٠٧) رحمه الله تعالى: ﴿مالم يأذن به الله﴾ من الشرك، والشرائع المضلة، وإنكار البعث، والعمل للدنيا، والآية بعمومها تشمل كل شيء لم يأمر به الله سبحانه، أو رسوله، فيدخل فيه التقليد؛ لأنه مما لم يأذن به الله، بل ذمّه في كتابه في غير موضع، ولم يأذن به رسوله، ولا إمام من أئمة الدين، ولا أحد من سلف الأمة وسادتها وقادتها، بل نهى عنه المجتهدون الأربعة، ومن كان بعدهم من أهل الحق، ركب الإيمان، وأتباع السنة المطهرة، وإنما أحلّه من أحدث من الجهال والعوام، بعد القرون المشهود لها بالخير، فرحم الله امرأً سمع الحق فاتبعه، وسمع الباطل فتركه وأدمغه، وبالله التوفيق(٥٦).

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٤) رحمه الله تعالى: أي: شرعوا لهم من جنس الدين ﴿مالم يأذن به الله﴾ أي: لم يُرسل به رسولاً منه، ولا أُوحي به بواسطة ملائكته(٥٧).

وزيادة في تأكيد الاتباع: نجد النبي ﷺ يحذر من الإحداث في الدين بعبادات وأفعال لم يشرعها لأمته، وليست من أمره، فيقول كما في حديث عائشة رضي الله

(٥٤) أضواء البيان، سورة آل عمران، آية (٣١).

(٥٥) جامع البيان، سورة الشورى، آية (٢١).

(٥٦) فتح البيان، سورة الشورى، آية (٢١).

(٥٧) التحرير والتنوير، سورة الشورى، آية (٢١).

عنها: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو ردّ)[٥٨] وفي رواية (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)[٥٩] .

قال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٦٧) رحمه الله تعالى: الردّ هنا، بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطل غير معتد به، وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات ... وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات، وإشاعة الاستدلال به[٦٠] .

فمن أراد النجاة يوم العرض الأكبر على الله تعالى، فليحقق شهادة (أن محمداً رسول الله) بمتابعة السنة، والحذر من البدع، وما يشرّعه ويُزينه بعض من قل نصيبه من التمسك بسنة النبي صلى الله عليه من الأقوال والأفعال، مما ليس له أصل في كتاب الله تعالى، ولم يرد عن النبي ﷺ وقد قال ﷺ مُحذّراً صحابته الكرام: (وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)[٦١] .

وما أكثر ذلك في بلاد المسلمين، وللأسف الشديد، فترى البدع في عباداتهم ومساجدهم وأورادهم واحتفالاتهم، وغير ذلك مما يصعب حصره، وكل ذلك من تزيين الشيطان لهم، ليصدهم عن صراط الله المستقيم، وعن سنة نبيه ﷺ.

وقد ذكر ابن الماجشون، عن الإمام مالك رحمه الله تعالى أنه قال: من أحديث في هذه الأمة اليوم شيئاً، لم يكن عليه سلفها، فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله تعالى يقول ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ المائدة (٣) فما لم يكن يومئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً[٦٢].

وقد جاء في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إني فَرَطُكم على الحوض، من مرّ علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردنّ علي أقوام أعرفهم

---

(٥٨) البخاري في صحيحه (٢٥٥٠، ٢٦٩٧) ومسلم في صحيحه (١٧١٨).

(٥٩) مسلم في صحيحه (١٧١٨).

(٦٠) شرح النووي على مسلم: ٣٨٠/١٢.

(٦١) أبو داود في سننه (٤٦٠٧) والترمذي في سننه (٢٦٧٦) وابن ماجه في سننه (٤٢) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وهو حديث صحيح مشهور.

(٦٢) رواه الإمام ابن حزم بسنده إلى ابن الماجشون، كما في الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم: ٥٨/٦، وانظر: الاعتصام، للشاطبي: ٥٤/١.

ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم، فأقول: إنهم منّي، فيُقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن غيّر بعدي)[٦٣] .

قال الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله، المعروف بابن عبد البر (ت٤٦٣) رحمه الله تعالى: كل من أحدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض، كالخوارج، والروافض، وسائر أصحاب الهو ى ... وكل هؤلاء يُخاف عليهم أن يكونوا ممن عُنوا بهذا الخبر والله أعلم[٦٤] .

وقال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٦٧) رحمه الله تعالى: هذا مما اختلف العلماء في المراد منه على أقوال:

... والثالث: أن المراد أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد، وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام[٦٥].

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرطُبي (ت٦٧١) رحمه الله تعالى: قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به الله، فهو من المطرودين عن الحوض، المبعدين عنه، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدّلون[٦٦].

وقال الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠) رحمه الله تعالى: والأظهر أنهم من الداخلين في غمار هذه الأمة؛ لأجل ما دل على ذلك فيهم، وهو الغرة والتحجيل؛ لأن ذلك لا يكون لأهل الكفر المحض، كان كفرهم أصلاً أو ارتدادا، ولقوله (قد بدلوا بعدك) ولو كان الكفر: لقال: قد كفروا بعدك، وأقرب ما يُحمل عليه: تبديل السنة، وهو واقع على أهل البدع[٦٧].

نعوذ بالله من التغيير والتبديل.

---

(٦٣) البخاري في صحيحه (٦٢١٢) ومسلم في صحيحه (٢٢٩٠).

(٦٤) شرح مسلم، للنووي: ١٣٧/١، فتح الباري: ٣٨٥/١١.

(٦٥) شرح مسلم: ١٣٦/٣.

(٦٦) التذكرة في أحوال الموتى: ص: ٣٥٢.

(٦٧) الاعتصام: ٩٦/١.

٩-فصل في بيان أن جميع الرسل دعوا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده.

قال الله تعالى ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ النحل (٣٦).

وقال تعالى ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ النحل (٢).

وقال الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ الأنبياء (٢٥).

وقد ذكر الله تبارك وتعالى، أن نوحاً، وهوداً، وصالحاً، وشعيباً، صلى الله عليهم وسلم، كل واحد منهم قال لقومه: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ الأعراف (٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥).

وإبراهيم ﷺ قال لقومه: ﴿اعبدوا الله واتقوه﴾ العنكبوت (١٦).

وعيسى ﷺ قال لقومه: ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ آل عمران (٥١).

قال الإمام محمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣) رحمه الله تعالى، وهو يتكلم عن آية النحل: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه بعث في كل أمة رسولاً بعبادة الله وحده، واجتناب عبادة ما سواه، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله) فإنها مركبة من نفي وإثبات، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، وإثباتها هو إفراده جل وعلا بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم صلوات الله وسلامه، وأوضح هذا المعنى كثيراً في القرآن عن طريق العموم والخصوص. ثم ذكر الشيخ آية الأنبياء ممثلا بها على العموم، ويعني بالعموم عموم الأنبياء والمرسلين، ثم أتبع ذلك بالآيات السابقة التي أخبرت أن كل رسول دعا قومه إلى ذلك. ثم قال: واعلم أن كل ما عُبد من دون الله فهو طاغوت، ولا تنفع عبادة الله إلا بشرط اجتناب عبادة ما سواه؛ كما بينه تعالى بقوله ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾[٦٨] .

---

(٦٨) أضواء البيان، سورة النحل، آية (٣٦) والآية في سورة البقرة (٢٥٦).

١٠-فصل في بيان أن الشرك مُحبط للأعمال، وأن صاحبه إذا مات عليه فإن الله لا يغفر له.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ الأنعام (٨٨).

قال الإمام محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء الذين سميناهم بربهم تعالى ذكره، فعبدوا معه غيره ﴿لحبط عنهم﴾ يقول: لبطل عنهم أجر أعمالهم التي كانوا يعملون؛ لأن الله لا يقبل مع الشرك به عملاً[٦٩]

ومثل هذه الآية، الآية الأخرى، التي خاطب الله فيها نبينا محمداً ﷺ بقوله: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ الزمر (٦٥).

وقال تعالى ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ الفرقان (٢٣).

قال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠) رحمه الله تعالى: وهذا وعيد آخر، وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالاً لها صورة الخير: من صلة رحم، وإغاثة الملهوف، وإطعام الطعام، وأمثالها، ولم يمنع من الإثابة عليها إلا الكفر الذي هم عليه، فمُثّلت حالهم وأعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم، واستعصوا عليه، فقدم إلى ما معهم من المتاع فأفسده، ولم يترك منه شيئاً[٧٠].

وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يُعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها)[٧١] .

فدل هذا الحديث على أن الكافر إذا عمل عملاً طيباً؛ كصلة الرحم، والصدقة والضيافة، وغير ذلك من الأعمال الخيرة، فإن الله تعالى لا يظلمه عمله، فيكافئه على هذا العمل في الدنيا إذا شاء كيف شاء، بأنواع المكافآت، من سعة في الرزق، وتسهيل الآمور، وغير ذلك من نعم الله تعالى على العباد، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يُجزى بها، وقد حكى الإمام النووي رحمه الله تعالى: إجماع العلماء

---

(٦٩) جامع البيان، سورة الأنعام، آية (٨٨).

(٧٠) فتح القدير، سورة الفرقان، آية (٢٣).

(٧١) مسلم في صحيحه (٢٨٠٨).

على أن الكافر الذي مات على كفره، لا ثواب له في الآخرة، ولا يجازى فيها بشيء من عمله في الدنيا[٧٢].

وذلك لأن حسناته الدنيوية مهما عظمت فإن شرط قبولها في الآخرة والجزاء عليها، غير متوفر فيه، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لله صواباً على شريعة الله، وكان العامل مؤمناً بالله تعالى، كما دلت على ذلك النصوص الشرعية، هذا هو العمل الذي يُجازي الله صاحبه عليه يوم القيامة[٧٣].

يدل لذلك ما روته عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت يا رسول الله، ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال (لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)[٧٤] .

قال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٦٧) رحمه الله تعالى: معنى هذا الحديث: أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام، ووجوه المكارم، لا ينفعه في الآخرة، لكونه كافراً، وهو معنى قول النبي ﷺ (لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين) أي: لم يكن مصدقاً بالبعث، ومن لم يُصدق به كافر، ولا ينفعه عمل، قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: وقد انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يثابون عليها بنعيم، ولا تخفيف عذاب[٧٥].

وما ما يتعلق بعدم المغفرة يوم القيامة لمن مات على الشرك، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ النساء (٤٨، ١١٦).

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي (ت٢٩٤) رحمه الله تعالى: حكم بأن الشرك غير مغفور للمشرك، يعني: إذا مات غير تائب منه، لقوله ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ الأنفال (٣٨) مع آيات غير هذه تدل على أن التائب من الشرك مغفور له شركه، فثبت بذلك أن الشرك الذي أخبر الله أنه لا يغفره: هو الشرك الذي لم يتب منه، وأن التائب مغفور له شركه، وأخبر أنه يغفر ما دون الشرك لمن يشاء، يعني: لمن أتى دون الشرك، فلقي الله غير تائب منه[٧٦] .

---

(٧٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ١/٤٦٠، شرح النووي على مسلم: ١٧/١٥٠.

(٧٣) انظر: تفسير ابن كثير، سورة الكهف، آية (١١٠) أضواء البيان، سورة الكهف، آية (١١٠).

(٧٤) مسلم في صحيحه (٢١٤).

(٧٥) شرح النووي على مسلم: ٣/٨٢.

(٧٦) تعظيم قدر الصلاة: ٢/٦١٧.

وفي هذا المعنى ما جاء أيضاً في كتاب الله تبارك وتعالى من أن الجنة حرام على من مات على الشرك، وأن مأواه النار، قال الله تعالى: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ المائدة (٧٢).

١١-فصل في بيان أن المشركين كانوا يعتقدون أن معبوداتهم تشفع لهم عند الله تعالى وتقربهم إليه زلفى.

قال الله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ يونس (١٨).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ الزمر (٢-٣).

قال قتادة: وذلك أنهم إذا قيل لهم: من ربكم ومن خلقكم، ومن خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً؟ قالوا: الله، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم الأوثان؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى ... ويشفعوا لنا عنده[٧٧].

وعن مجاهد، قال: قريش تقوله للأوثان، ومن قَبْلَهم يقوله للملائكة، وعيسى بن مريم، ولعُزير[٧٨].

والمراد بالزلفى: كأنهم يقولون: إلا ليقربونا إلى الله تقريباً[٧٩].

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: يقول تعالى ذكره: فاخشع لله يا محمد بالطاعة، وأخلص له الألوهية، وأفرده بالعبادة، ولا تجعل له في عبادتك شريكاً، كم فعلت عبدة الأوثان ... والذين اتخذوا من دون الله أولياء يتولونهم، ويعبدونهم من دون الله، يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زلفى، قربة ومنزلة، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا[٨٠].

وقال محمد بن عبد الله بن أبي زَمَنِين الأندلسي (ت٣٩٩) رحمه الله تعالى: زعموا أنهم يتقربون إلى الله بعبادة الأوثان؛ لكي يُصلح لهم معايشهم في الدنيا[٨١].

---

(٧٧) معالم التنزيل، سورة الزمر، آية (٢-٣).

(٧٨) جامع البيان، سورة الزمر، آية (٢-٣).

(٧٩) معالم التنزيل، سورة الزمر، آية (٢-٣) فتح القدير، سورة الزمر، آية (٢-٣).

(٨٠) جامع البيان، سورة الزمر، آية (٢-٣).

(٨١) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي زمنين، سورة الزمر، آية (٢-٣).

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرطُبي (ت٦٧١) رحمه الله تعالى: ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ وهذه غاية في الجهالة منهم، حيث ينتظرون الشفاعة في المآل، ممن لا يُوجد منه نفع ولا ضر في الحال.

وقيل: تشفع لنا عند الله في إصلاح معايشنا في الدنيا[٨٢].

وقال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: إنما يحملهم على عبادتهم لهم: أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور، تنزيلاً لذلك منزل عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا ... وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه ... وأخبر أن الملائكة التي في السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عنده بغير إذنهم، فيما أحبه الملوك وأبوه[٨٣].

وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠) رحمه الله تعالى: والإخلاص أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه، والدين العبادة والطاعة، ورأسها توحيد الله، وأنه لا شريك له... وقال رحمه الله: إن الدين الخالص من شوائب الشرك وغيره، هو لله، وما سواه من الأديان، فليس بدين الله الخالص الذي أمر به[٨٤].

وظاهر من هذا: أن المشركين لم يكونوا يعتقدون أن معبوداتهم، هي التي تخلق وترزق، وتحيي وتميت، وتنفع وتضر، وإنما يعتقدون فيها شيئاً آخر.

وقال الإمام محمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣) رحمه الله تعالى: بين أنهم ما عبدوا الأصنام، إلا لأجل أن تقربهم من الله زلفى، والزلفى القرابة ...أي ليقربونا إليه قرابة تنفعنا بشفاعتهم في زعمهم، ولذا كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك،

---

(٨٢) الجامع لأحكام القرآن، سورة يونس، آية (١٨).

(٨٣) تفسير ابن كثير، سورة الزمر، آية (٢-٣).

(٨٤) فتح القدير، سورة الزمر، آية (٢-٣).

إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك ... وهذا النوع من ادعاء الشفعاء، واتخاذ المعبودات وسائط، من أصول كفر الكفار[٨٥].

فإن قيل: على قول من يقول: إنهم يرجون شفاعة معبوداتهم في الآخرة، فكيف يستقيم هذا القول مع أنهم ينكرون البعث والنشور؟

أجاب عن ذلك العلماء رحمهم الله تعالى، ومنهم الإمام محمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣) رحمه الله تعالى، حيث قال:

هذه الآية الكريمة تدل على أنهم يرجون شفاعة أصنامهم يوم القيامة، وقد جاء في آيات أخرى ما يدل على إنكارهم لأصل يوم القيامة، كقوله تعالى ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ الأنعام (٢٩) .... والجواب: أنهم يرجون شفاعتها في الدنيا؛ لإصلاح معاشهم، وفي الآخرة على تقدير وجودها؛ لأنهم شاكون فيها ... ويدل له قوله تعالى عن الكافر ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ فصلت (٥٠) وقوله ﴿ولئن رُددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ الكهف (٣٦)[٨٦] .

قلت: وهذه الشبهة وهذا الزعم الذي ذكره القرآن العظيم عن المشركين الأولين، هو شبهة وزعم كثير ممن تعلقت قلوبهم بالمخلوقين في هذه الأزمنه، ممن يقدسون ساكني القبور والأضرحه، ومشايخ الطرق، ومن يصفونهم بأنهم أولياء وصالحون، وربما تقربوا إليهم ببعض أنواع القرب والعبادات، ظانين فيهم ظن المشركين الأولين، أنهم يشفعون لهم عند الله، أو أنهم يقربونهم من الله زلفى، أو أن صنيعهم هذا بهؤلاء من الأعمال التي يرضى الله عنهم بسببها، تعالى الله عن ظنهم علواً كبيراً.

والمسؤولية عظيمة على أهل العلم وطلابه، ومن بسط الله يده بشيء من الولاية، أن يبينوا الحق للناس ولا يكتمونه، وألا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم، فإن الله تعالى سائل كل من عنده علم، عن علمه ماذا عمل به.

---

(٨٥) أضواء البيان، سورة الزمر، آية (٣) وانظر منه: سورة المائدة، آية (٣٥).

(٨٦) دفع إيهام الاضطراب، سورة يونس، آية (١٨).

الباب الأول:

أفعال ربنا سبحانه وتعالى، وفيه ثلاثة فصول.

١-فصل في بيان أن الله تبارك وتعالى هو الخالق لكل شيء، المحيي المميت.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون. هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾ البقرة (٢٨-٢٩).

الآيات الواردة في القرآن الكريم، والتي تتكلم عن أفعال الله تبارك تعالى كثيرة جداً، يصعب حصرها، وإيرادها في هذا المختصر، وهي بحمد الله تبارك وتعالى لا تخفى على كل قارئ لكتاب الله عز وجل.

ففي هاتين الآيتين الكريمتين يذكر ربنا جل وعلا: أنه المحيي المميت، الخالق لكل ما في الأرض، سبحانه وتعالى، كرامة لبني آدم.

وفي آية أخرى يُخبر سبحانه وتعالى أنه خالق كل شيء ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء﴾ الأنعام (١٠٢).

قال عثمان بن سعيد أبو عمرو الداني (ت٤٤٤) رحمه الله تعالى، وهو يتكلم عن عقيدة أهل السنة والجماعة: ومن قولهم: إن الله سبحانه مقدر أرزاق الخلق، ومؤقت لآجالهم، وخالق لأفعالهم، وقادر على مقدوراتهم، وأنه إله ورب لنا، لا خالق غيره، ولا رب سواه، على ما أخبر به جل ثناؤه في قوله ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾[٨٧] الروم (٤٠).

وهذه مسألة معلومة، ولا تحتاج لمزيد بيان.

(٨٧) الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات: ص١٥١.

٢-فصل في بيان أن الله تبارك وتعالى أشهد خلقه على ربوبيته لهم، فشهدوا على ذلك.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ الأعراف (١٧٢).

الإقرار بربوبية الله سبحانه وتعالى أمر فطري، وهو من أعظم الأمور الضرورية التي تشهد بها عقول جميع الناس.

عن السدي رحمه الله تعالى، قال: ليس في الأرض أحد من ولد آدم، إلا وهو يعرف أن ربه الله.

وعن الكلبي رحمه الله تعالى، قال: لا تسأل أحداً كافراً ولا غيره من ربك؟ إلا قال: الله.

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وقال الحسن مثل ذلك أيضاً[٨٨].

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠) رحمه الله تعالى: الفطرة التي طُبعت عليها الخليقة من الدين: فَطَرهم الله على معرفته بربوبيته[٨٩].

ويقرر أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢) رحمه الله تعالى، هذه المسألة فيقول:

معرفة الله تعالى العامية، مركوزة في النفس، وهي معرفة كل أحد أنه مفعول، وأن له فاعلاً فعَلَه، ونقله في الأحوال المختلفة ... فهذا القدر من المعرفة في نفس كل أحد، ويتنبه الغافل عنه إذا نبه عليه، فيعرفه[٩٠].

ويقول الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت٥٤٨) رحمه الله تعالى: إن الفطر السليمة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها على صانع حكيم عالم قدير[٩١].

---

(٨٨) هذه الآثار في جامع البيان، في تفسير هذه الآية.

(٨٩) كتاب العين: ٤١٨/٧.

(٩٠) الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص: ١٥٣.

(٩١) نهاية الإقدام في علم الكلام: ص ٧٤.

ويقول العلامة كمال الدين محمد بن همام الدين الحنفي، المشهور بابن الهمام (ت ٨٦١) رحمه الله تعالى، بعد أن ذكر كفر أهل الديانات الباطلة: اعترف الكل بأن خلق السموات والأرض، والألوهية الأصلية لله تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ لقمان (٢٥) فهذا كان في فطرتهم، ولذا كان المسموع من الأنبياء دعوة الخلق إلى التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله[٩٢].

(٩٢) المسايرة في علم الكلام والعقائد المنجية في الآخرة: ص٧.

٣-فصل في بيان أن المشركين معترفون لله بالربوية، وأن الله هو الخالق الرازق.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ العنكبوت (٦١).

وقال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله﴾ العنكبوت (٦٣).

وقال سبحانه تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ الزخرف (٩).

هذه الآيات وأمثالها في القرآن العظيم: تقرر حقيقة واضحة لا لبس فيها، وهي: أن النبي ﷺ لو سأل المشركين بالله تعالى عن خالق السموات والأرض، ومن الذي يسخر الشمس والقمر، ومن الذي ينزل المطر من السماء، ومن الذي يحيي الأرض بعد موتها؟ لكان جوابهم بلا تردد ولا تفكر: إنه الله تعالى.

قال قتادة رحمه الله تعالى في قول الله سبحانه وتعالى ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾: فالخلق كلهم يقرون لله أنه ربهم، ثم يشركون بعد ذلك[٩٣].

وقال العلامة أبو الحسن، علي بن علاء الدين، المعروف بابن أبي العز الحنفي (ت٧٩٢) رحمه الله تعالى: ولم ينازع في ذلك المشركون الذين دعاهم النبي ﷺ إلى عبادة الله وحده، فقد كانوا معترفين بالله، مقرين بأنه ربهم وخالقهم ورازقهم، وأنه رب السموات والأرض[٩٤].

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٤) رحمه الله تعالى، وهو يتكلم على آية الزخرف: فهي مسوقة لإثبات الوحدانية، لا لإثبات وجود الصانع، إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين، ولا لإثبات انفراده بالخلق؛ إذ لا نزاع فيه كذلك[٩٥].

---

(٩٣) جامع البيان: ٤٤١/١٨.

(٩٤) شرح الطحاوية: ٣١٤/١.

(٩٥) التحرير والتنوير: ٣٩/١٧.

٤-فصل في بيان أن إقرار المشركين بأن الله هو الخالق الرازق ليس بنافع لهم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ يوسف (١٠٦).

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: من إيمانهم إذا قيل لهم من خلق السماء، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون[٩٦].

وعن مجاهد بن جبر رحمه الله تعالى في هذه الآية، قال: إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا[٩٧].

وقال عكرمة رحمه الله تعالى: تسألهم من خلقهم، ومن خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله، فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره[٩٨].

فانظر كيف وصفهم بالإيمان، ثم أخبر بأنهم مشركون، وأن هذا الإيمان الذي ذكره عنهم هؤلاء العلماء لم يخرجهم من دائرة كفرهم، إذ هو ليس بنافع لهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله تعالى: ليس أحد يعبد مع الله غيره، إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم ﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ الشعراء (٧٥-٧٧) قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي؛ تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك؟ المشركون كانوا يقولون هذا[٩٩].

وقال الإمام محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣) رحمه الله تعالى: قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعامر الشعبي، وأكثر المفسرين: إن معنى هذه الآية: أن أكثر الناس، وهم الكفار، ما كانوا يؤمنون بالله بتوحيدهم له في ربوبيته، إلا وهم مشركون به غيره في عبادته، فالمراد بإيمانهم: اعترافهم بأنه ربهم الذي هو خالقهم، ومدبر شؤونهم، والمراد بشركهم: عبادتهم غيره مَعه[١٠٠].

---

(٩٦) جامع البيان، سورة يوسف، آية (١٠٦).

(٩٧) جامع البيان، سورة يوسف، آية (١٠٦).

(٩٨) جامع البيان، سورة يوسف، آية (١٠٦).

(٩٩) جامع البيان، سورة يوسف، آية (١٠٦) تفسير ابن أبي حاتم (١٢٨٥٦).

(١٠٠) أضواء البيان: ٢/٢١٨.

وقال الشيخ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥) رحمه الله تعالى: لا ولي ولا حَكَم ولا رب إلا الله، الذي من عدل به غيره فقد أشرك في ألوهيته، ولو وحّد في ربوبيته، فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، وتوحيد الإلهية مفرّق الطرق، بين المؤمنين والمشركين، ولهذا كانت كلمة الإسلام: لا إله إلا الله، ولو قال: لا رب إلا الله، لما أجزأه عند المحققين، فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد(١٠١).

وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠) رحمه الله تعالى: اعلم أن الله لم يبعث رسله، وينزل كتبه لتعريف خلقه بأنه الخالق لهم، والرازق، ونحو ذلك، فإن هذا يُقرّ به كل مشرك قبل بعثة الرسل ... بل بعث الله رسله وأنزل كتبه لإخلاص توحيده، وإفراده بالعبادة(١٠٢).

وقال العلامة محمود شكري الألوسي (ت ١٣٤٢) رحمه الله تعالى: والمتكلمون خفي عليهم هذا، وظنوا أن تحقيق توحيد الربوبية والقدرة، هو الغاية المقصودة، والفناء فيه هو تحقيق التوحيد، وليس الأمر كذلك، بل هذا لا يكفي في الإيمان وأصل الإسلام؛ إلا إذا أضيف إليه واقترن به توحيد الإلهية، وإفراد الله بالعبادة والحب والخضوع والتعظيم، والإنابة والتوكل، والخوف والرجاء، وطاعة الله وطاعة رسوله، هذا أصل الإسلام وقاعدته(١٠٣).

وقال العلامة الألوسي أيضاً: توحيد الربوبية هو الذي أقرت به الكفار جميعهم، ولم يخالف منهم أحد في هذا الأصل، إلا الثنوية وبعض المجوس، وأما غيرهما من سائر فرق الكفر والشرك فقد اتفقوا على أن خالق العالم ورازقهم ومدبر أمرهم ونافعهم وضارهم ومجيرهم واحد(١٠٤).

ويقول الشيخ محمد سلطان المعصومي الخُجَندي (ت ١٣٧٩) رحمه الله تعالى: اعلم أن لا إله إلا الله هي الكلمة الفارقة بين الكفر والإسلام، فمن قالها عالما بمعناها، ومعتقداً إياها، فقد دخل في الإسلام، وصار من أهل دار السلام: الجنة، وأما من قال: لا خالق إلا الله، أو لا رازق إلا الله، أو لا رب إلا الله، أو نحو ذلك، فلا يكون مسلماً، ولا يكون من أهل دار السلام، وهذه الكلمات وإن كانت كلمات حقّة، ولكن

---

(١٠١) تجريد التوحيد المفيد: ص٨.

(١٠٢) الدر النضيد: ص ٤٥.

(١٠٣) غاية الأماني: ١/١٣٦.

(١٠٤) فتح المنان: ص: ٢٩٢.

يشترك في القول بها سائر الناس من المشركين والمجوس والنصارى واليهود وغيرهم ...كما يشهد القرآن بذلك[١٠٥].

وبهذا يتبين: أن الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت .... الخ مما يتعلق بالربوبية، وأفعال الله تعالى، ليس بنافع صاحبه، مالم يُخلص الألوهية والعبادة لله تبارك وتعالى، فانظر كيف وصفهم في الآية بالإيمان، ثم حكم بأنهم مشركون. نسأل الله تعالى العفو والعافية.

(١٠٥) مفتاح الجنة لا إله إلا الله: ص ٣٩، وانظر: (الدرر السنية) الموسوعة العقدية، الكتاب الثاني: الإيمان بالله. على الشبكة العنكبوتية.

الباب الثاني:

أسماء ربنا سبحانه وتعالى وصفاته، وكيف يكون المسلم مؤمنا بذلك، وفيه فصلان.

١-فصل في بيان أن لله تبارك وتعالى أسماء، وأنها كلها حسنى.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ الأعراف (١٨٠).

وقال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ الإسراء (١١٠).

وقال تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ طه (٨).

وقال تعالى: ﴿هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى﴾ الحشر (٢٤).

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: ومن أسمائه (العزيز الجبار) وكل أسمائه حسن[١٠٦].

فسبحانه ما أعظمه من إله، سَمّى نفسه في كتابه العظيم بأسماء كثيرة، يعرفها كل من قرأ كتاب الله جل وعلا.

وكل أسمائه بالغة في الحسن مبلغاً تعجز العقول عن إدراكه ووصفه، وتعجز الأقلام عن بيانه ونعته، ومن حُسن أسمائه: أن كل اسم من أسمائه الحسنى دال على وصف عظيم يتصف به الباري جل وعلا، فمثال ذلك أن من أسماء الله تبارك وتعالى ﴿الرحمن الرحيم﴾ الفاتحة (١-٣) فسمى نفسه بأنه ﴿الرحمن الرحيم﴾ فهذان اسمان عظيمان حسنان دلاّ على صفة الرحمة، وهكذا بقية أسمائه الحسنى التي لا يعلم عددها إلا هو سبحانه وتعالى، فكل اسم منها دالّ على وصف، ولذلك يقول العلماء عن أسماء الله تعالى: إنها مشتقة، ويعنون بهذا أنه يُشتق من كل اسم له سبحانه صفة مناسبة لذلك الاسم.

وأسماء الله تعالى لا يعلم عددها إلا هو سبحانه، كما جاء عن النبي ﷺ في الدعاء المشهور (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو

---

(١٠٦) جامع البيان، آية الأعراف (١٨٠).

أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي)[١٠٧] .

ولا يشكل على هذا ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال (إن لله تسعةً وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة)[١٠٨] .

فليس في هذا الحديث أن أسماء الله محصورة بعدد معين.

قال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦) رحمه الله تعالى: اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى، فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث: أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها، لا الإخبار بحصر الأسماء[١٠٩] .

واعلم أنه لم يثبت حديث عن النبي ﷺ في تعيين هذه الأسماء المذكورة في هذا الحديث، وقد اجتهد العلماء قديماً وحديثاً في تعداد ما يمكن من أسماء الله تعالى التي وردت في القرآن والسنة الصحيحة، وقد أُلّف في ذلك مؤلفات في شرح هذه الأسماء.

كما أنه لم يثبت عن المعصوم عليه الصلاة والسلام تفسير لمعنى الإحصاء الوارد في الحديث، الموعود عليه بالجنة، ولأجل ذلك تنوعت أقوال العلماء في المراد به، فمنهم من يقول: المعنى حفظها، ومنهم من يقول: الدعاء بها، ومنهم من يقول التخلق بما يمكن التخلق بما دلت عليه من المعاني، والله أعلم بحقيقة الحال، وليجتهد المسلم في كل ذلك.

والمهم في هذا: أن يعلم المسلم أن لله تبارك وتعالى أسماء، وأن يتعبد الله تعالى بمعرفتها، ومعرفة معانيها وما دلت عليه، وأن يسأل الله تبارك وتعالى بها، نسأل الله الكريم أن يوفقنا لذلك.

---

(١٠٧) أحمد في المسند (٣٧١٢) وهو حديث صحيح.

(١٠٨) البخاري في صحيحه (٢٧٣٦) ومسلم في صحيحه (٢٦٧٧).

(١٠٩) شرح النووي على مسلم: ١٧٧/٦، وانظر فتح الباري لابن حجر: ٢٣٦/٩-٢٣٧.

٢-فصل في بيان أن الله تعالى ليس كمثله شي، وأنه سميع بصير.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ الشورى (١١).

أقول ومن الله تعالى أستمد العون والتوفيق: لقد سمع النبي ﷺ القرآن العظيم من جبريل ﷺ من أوله إلى آخره، على مدار ثلاث وعشرين سنة، ولم يشك في حرف منه، ولم يسأل عن كلمة واحدة منه، ثم تلاه على صحابته الكرام، وأخذوا يتدارسونه بينهم في كل وقت وحين، وربما سألوا النبي ﷺ عن أشياء فيأتيهم الجواب، ولم يُنقل عنهم حرف واحد في السؤال عن الغيبيات التي لا تدرك كنهها وحقيقتها العقول، وخاصة ما يتعلق بما لله تبارك وتعالى من الصفات التي سمعوها سواء ما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى، أو ذكرها النبي ﷺ لهم في حديثه.

ونحن نجزم ولا نتردد أن الصحابة الكرام ﷺ وقبلهم الرسول عليه الصلاة والسلام، كلهم كانوا مؤمنين بما جاء به الوحي العظيم، من أمور الغيب كلها، ومن ذلك ما لله تبارك وتعالى من صفات، على معنى يليق بجلال الله وعظمته، مستحضرين هذا الأصل العظيم المذكور في الآية السابقة.

ولا نعلم أن صحابياً استوقف النبي ﷺ سائلاً مُستشكلاً عمّا يسمعه في القرآن العظيم عن الله رب العالمين، فكان أولئك الصحب الكرام أهل إيمان وتصديق وتسليم.

وقد سلك التابعون مسلك الصحابة الكرام ﷺ في هذا الأمر، وساروا على هذا الطريق: طريق الإيمان والتصديق والتسليم.

جاء عن الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه قال: من الله البيان، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم(١١٠).

وقد ذكر لنا التاريخ واقعة حدثت للإمام مالك بن أنس الإمام المشهور، فقد روى البيهقي بسنده، إلى عبد الله بن وهب قال:

كنا عند مالك بن أنس، فدخل عليه رجل، فقال: يا أبا عبد الله؟ الرحمن على العرش استوى، كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك، وأخذته الرُّحَضَاء، ثم رفع رأسه،

---

(١١٠) أورده البخاري في صحيحه معلقاً: ٥٠٣/١٣ فتح.

فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة، أخرجوه. قال: فأُخرج(١١١).

ويروي جعفر بن عبد الله هذه القصة عن مالك، بلفظ مقارب، قال: الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة(١١٢).

وقال القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤) رحمه الله تعالى: قال أبو طالب المكي: كان مالك رحمه الله من أبعد الناس عن مذاهب المتكلمين، وأشدهم بغضاً للعراقيين، وألزمهم لسنة السالفين من الصحابة والتابعين، قال سفيان بن عيينة: سأل رجل مالكاً، فقال: الرحمن على العرش استوى، كيف استوى يا أبا عبد الله؟ فسكت مالك ملياً حتى علاه الرُّحَضَاء، وما رأينا مالكاً وجد من شيء وجده من مقالته، وجعل الناس ينظرون ما يأمر به، ثم سُرّي عنه، فقال: الاستواء منه معلوم، والكيف منه غير معقول، والسؤال عن هذا بدعة، والإيمان به واجب، وإني لأظنك ضالاً، أخرجوه. فناداه الرجل: يا أبا عبد الله، والله الذي لا إله إلا هو، لقد سألت عن هذه المسألة أهل البصرة والكوفة والعراق، فلم أجد أحداً وُفّق لما وُفّقت له(١١٣).

وهذه القصة اشتهرت عن الإمام مالك شهرة واسعة، وقد رواها عنه جماعة، غير من ذكرت، وحكم عليها النقاد بالثبوت(١١٤).

فقد قال الإمام الذهبي: وهذا ثابت عن مالك(١١٥).

---

(١١١) البيهقي في الأسماء والصفات: ٣٠٤/٢

(١١٢) حلية الأولياء: ٦/ ٣٢٥-٣٢٦، وعنه الذهبي في السير: ١٠٠/٨. وانظر: الاعتقاد للبيهقي: ص٥٦، طبقات المحدثين بأصبهان: ٢١٤/٢، التمهيد لابن عبد البر: ١٣٨/٧، ١٥١، والبيان والتحصيل لابن رشد: ٣٦٧/١٦-٣٦٨

(١١٣) ترتيب المدارك: ٣٩/٢، وعنه الذهبي في السير: ١٠٦/٨-١٠٧.

(١١٤) انظر للوقوف على هذه الحكاية عن مالك، والكلام عليها البحث المعنون بـ(الأثر المشهور عن الإمام مالك، رحمه الله، في صفة الاستواء، القسم الأول) للدكتور: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، المنشور في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد (١١١) السنة (٣٣) ١٤٢١، وقد استفدت منه، فنقلت وعزوت ووثقت، فجزاه الله أعظم الجزاء وأوفاه.

(١١٥) مختصر العلو: ١٤١.

وحكم الحافظ ابن حجر على رواية عبد الله بن وهب عن مالك بأن: إسنادها جيد[١١٦].

والمتأمل لهذه القصة وسياقاتها = يجد أن هذه المسألة لم تكن مطروقة عند سلفنا الصالحين، على نحو ما أشاعه بعد ذلك الخائضون فيما لا علم لهم به، سوى إعمال المعقولات في أمور لا يجوز للعقول أن تخوض فيها؛ فإن الخوض فيها لا يسعفه نظر صحيح ولا عقل رجيح، وكم أدخل هؤلاء على المسلمين من الشرور في باب الغيبيات، ولو كانت هذه المسألة وأمثالها مما شاع الكلام فيها وذاع؛ لما حصل لمالك ما حصل، ولما قال ما قال، لكنه رحمه الله قد وفقه الله لهذه الكلمات العظيمات، التي أصبحت بعد ذلك من قواعد أهل السنة، في باب أسماء الله وصفاته، فالحمد لله على التوفيق.

ويقرر الشيخ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥) رحمه الله تعالى هذه الحقيقة، فيقول: ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي، ووقف على الآثار السلفية، علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة ﵃ وعلى اختلاف طبقاتهم، وكثرة عددهم، أنه سأل الرسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم، وعلى لسان نبيه محمد ﷺ بل كلهم فهموا معنى ذلك، وسكتوا عن الكلام في الصفات ... ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى، وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله، ولا عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية، ولا مسائل الفلسفة[١١٧].

ثم بعد انقراض القرن الأول، الذي هو عصر العلم الحقيقي والدين النقي، ومع مطلع القرن الثاني ظهر على الأمة رجلان هما: الجعد بن درهم، وتلميذه الجهم بن صفوان[١١٨] الذي نُسبت إليه الجهمية فيما بعد، فأحدثوا في الأمة في هذا الأمر حدثاً

---

(١١٦) فتح الباري: ١٣/٤٠٦.

(١١٧) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: ٤/١٨٨.

(١١٨) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية: ٩/٣٨٢-٣٨٣، أن الجعد أخذ بدعته عن بيان بن سمعان، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر النبي ﷺ عن يهودي باليمن، وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان الخزري، وقيل الترمذي، ثم قُتل الجهم بأصبهان، وقيل بمرو، قتله نائبها سلم بن أحوز رحمه الله وجزاه عن المسلمين خيراً، وأخذ بشر المريسي عن الجهم، وأخذ أحمد بن أبي دؤاد عن بشر، وأما الجعد فإنه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن، فتطلبه بنو أمية، فهرب منهم، وسكن الكوفة، فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه، ثم إن خالد القسري قتل الجعد.

لا عهد للناس به، وفي هذا القرن نشأت المعتزلة على يد واصل بن عطاء، ثم ظهرت الكلابية على يد محمد بن سعيد بن كلاب، وبعد الكلابية نشأ مذهب الأشاعرة والماتريدية، وذلك في آخر القرن الثالث الهجري.

ولما ظهرت هذه الطوائف اشتغل الناس بعلم الكلام، والخوض في الغيبيات، وبدأ أهل الكلام يتكلمون عن أسماء الله تعالى وصفاته، وكل يُدلي برأيه وحجته، ليس عندهم سلطان يحتكمون إليه، سوى سلطان العقل، وما يوجبه ويمنعه، فاختلفوا في هذا الباب إلى فرق وطوائف، كل طائفة تضلل الأخرى وترد عليها، ونشأت الفتن والمعارك الكلامية، وحصل اضطراب شديد، وتشوش المنبع الصافي على كثير من الناس، حتى على بعض أهل العلم، وأخذ بعضهم في تقعيد هذه الأقوال المحدثة، والمنافحة عنها، وأصبحت هذه الأقوال جزءاً من التحصيل العلمي، في المدارس، وعلى الشيوخ، فابتليت الأمة بهذه البلوى، ينقلها كل جيل إلى الجيل الذي بعده، وإلى يوم الناس هذا، فنسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يرد المسلمين إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ وإلى ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

وأمام هذا الحدث العظيم = شرع بعض العلماء في محاولة رد الناس إلى ما كان عليه أهل الصدر الأول، فكتبوا وبينوا، واجتهدوا في ذلك، فبقي الدين قائماً والحمد لله، وبقيت السنة مرفوعة الراية بفضل الله، واستمر ذلك الجهاد العظيم على مر العصور والأزمنة، وإلى يومنا هذا، وإننا نلحظ والحمد لله رجوع كثير من الناس وخاصة كثير من أهل العلم إلى المنبع الصافي الكتاب والسنة، وما عليه أصحاب القرون المفضلة في العقيدة والعمل، والحمد لله على التوفيق.

وسوف أورد بإذن الله تعالى بعضاً من كلمات العلماء السابقين في بيان ما ذكرت، والله المستعان.

قال الإمام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام (ت١٥٧) رحمه الله تعالى: كنا والتابعون متوافرون، نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته[١١٩].

وإنما قال الأوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهم، المنكر لكون الله تعالى فوق عرشه، والنافي لصفاته، ليعرف الناس أن مذهب السلف خلاف ذلك.

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦) رحمه الله تعالى: وقال سعيد بن عامر: الجهمية أشد قولاً من اليهود والنصارى، قد اجتمعت اليهود

---

(١١٩) البيهقي في الأسماء والصفات: ص ٤٠٨.

والنصارى، وأهل الأديان، أن الله تبارك وتعالى على العرش، وقالوا هم: ليس على العرش شيء(١٢٠).

وقال الإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦) رحمه الله تعالى: وعَدلُ القول في هذه الأخبار أن نؤمن بما صح منها بنقل الثقات لها، فنؤمن بالرؤية والتجلي، وأنه يَعجب، وينزل إلى السماء الدنيا، وأنه على العرش استوى، وبالنفس، واليدين، من غير أن نقول في ذلك بكيفية أو بحد، أو أن نقيس على ما جاء مالم يأت، فنرجو أن نكون في ذلك القول والعقد على سبيل النجاة، غداً إن شاء الله تعالى(١٢١).

وقال أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩): عقيب روايته لحديث في فضل الصدقة، فيه ذكر صفة اليمين للرحمن جل ذكره: قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث، وما يشبه هذا من الروايات من الصفات، ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، قالوا: قد ثبتت الروايات في هذا، ويُؤمَن بها ولا يتوهم، ولا يقال: كيف؟ هكذا روي عن مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، أنهم قالوا في هذه الأحاديث: أمروها بلا كيف، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة(١٢٢).

وقال إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة (ت٣١١) رحمه الله تعالى: فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشام ومصر، مذهبنا أن نثبت لله ما أثبته لنفسه، نقر بذلك بألسنتنا، ونصدق بذلك بقلوبنا، من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين، عز ربنا عن أن يشبّه بالمخلوقين، وجل ربنا عن مقالة المعطلين، وعز أن يكون عدماً كما قاله المبطلون، لأن ما لا صفة له عدم، تعالى الله عما يقول الجهميون الذين ينكرون صفات خالقنا التي وصف بها نفسه في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه محمد ﷺ(١٢٣) .

وقال إمام الأئمة ابن خزيمة أيضاً: إن الأخبار في صفات الله موافقة لكتاب الله تعالى، نقلها الخلف عن السلف قرناً بعد قرن، من لدن الصحابة والتابعين، إلى عصرنا هذا، على سبيل الصفات لله تعالى، والمعرفة والإيمان به، والتسليم لما أخبر

---

(١٢٠) خلق أفعال العباد: ص: ٣٠.

(١٢١) الاختلاف في اللفظ: ص٥٣.

(١٢٢) سنن الترمذي: ٤٣/٢.

(١٢٣) كتاب التوحيد: ٢٩/١.

الله تعالى في تنزيله، ونبيه الرسول ﷺ عن كتابه، مع اجتناب التأويل والجحود، وترك التمثيل والتكييف[١٢٤].

وقال الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله، المعروف بابن عبد البر (ت٤٦٣) رحمه الله تعالى: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة في الكتاب والسنة، وحملها على الحقيقة، لا على المجاز، إلا أنهم لم يكيفوا شيئاً من ذلك[١٢٥].

وقال الحافظ أحمد بن علي، المعروف بالخطيب البغدادي (ت٤٦٣) رحمه الله تعالى: أما الكلام في الصفات، فإن ما روي منها في السنن والصحاح، مذهب السلف فيها إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين، فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، والقصد إنما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين، ودين الله تعالى بين الغالي فيه والمقصر عنه، والأصل في هذا: أن الكلام في الصفات فرع الكلام في الذات، ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله، فإن كان معلوماً أن إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: لله يد وسمع وبصر، فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه، ولا نقول: إن معنى اليد: القدرة، ولا أن معنى السمع والبصر: العلم، ولا نقول: إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار، التي هي جوارح وأدوات الفعل، ونقول: إنما وجب إثباتها؛ لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها؛ لقول ﴿ليس كمثله شيء﴾ ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾[١٢٦].

وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦) رحمه الله تعالى: وأما أهل السنة فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى، بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل، ثم ذكر الحكاية عن مالك[١٢٧].

وقال الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن القطان الفاسي (ت٦٢٨) رحمه الله تعالى: أجمعوا على وصف الله تعالى بجميع ما وصف به نفسه، ووصفه به نبيه،

---

(١٢٤) ذم التأويل، لابن قدامة: ص ١٨.

(١٢٥) التمهيد: ١٤٥/٧.

(١٢٦) سير أعلام النبلاء: ٢٨٤/١٨.

(١٢٧) تفسير البغوي، الأعراف (٥٤).

من غير اعتراض فيه، ولا تكييف له، وأن الإيمان به واجب، وترك التكييف له لازم[١٢٨].

وقال الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨) رحمه الله تعالى: وهو قول أهل السنة قاطبة، أن كيفية الاستواء لا نعقلها، بل نجهلها، وأن استواءه معلوم كما أخبر به في كتابه، وأنه كما يليق به، ولا نتعمق ولا نتحذلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً، بل نسكت ونقف كما وقف السلف، ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عليه، ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله لا مثل له في صفاته، ولا في استوائه، ولا في نزوله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً[١٢٩].

وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠) رحمه الله تعالى: وهو يتكلم على الآية المذكورة في هذا الفصل: ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها، وتدبرها حق تدبرها، مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات، على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله ﴿وهو السميع البصير﴾ فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمماثل قد اشتمل على برد اليقين، وشفاء الصدور، وانثلاج القلوب، فاقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة، والبرهان القوي، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع، وتهشم بها رؤوساً من الضلالة، وترغم بها آناف طوائف من المتكلفين، ولا سيما إذا ضممت إليه قول الله سبحانه ﴿ولا يحيطون به علماً﴾[١٣٠] (طه ١١٠).

وبعد هذا، فنرى: أنه يسع المسلم ما وسع الصحابة والتابعين وأصحاب القرون المفضلة، من التصديق والإيمان بما جاء لله تعالى من الأسماء والصفات، على نحو قول الله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ مسترشدين بمقولة الإمام مالك آنفة الذكر.

وأن من أراد السلامة لدينه فليجتهد في معرفة مذهب الصحابة ﷺ والتابعين لهم بإحسان في هذا الباب، وليحذر غاية الحذر من متابعة أهل الكلام الذين يخوضون في دين الله تبارك وتعالى بغير حجة ولا برهان، سوى تحكمات العقول والأهواء، والله المسؤول أن يثبتنا على الحق حتى نلقاه.

---

(١٢٨) الإقناع في مسائل الإجماع: ١/٤٤.

(١٢٩) مختصر العلو: ١٤١-١٤٢.

(١٣٠) فتح القدير: سورة الشورى، آية (١١).

الباب الثالث:

ما يجب لله تبارك وتعالى من الحقوق على عباده، وفيه ثلاثة وعشرون فصلاً.

١-فصل في بيان أن أعظم حق لله تبارك وتعالى على عباده: توحيده، وإخلاص العبادة له، والحذر من الشرك به.

عن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (حق الله على العباد: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله: ألا يُعذب من لا يشرك به شيئاً)[١٣١].

ففي هذا الحديث: التصريح الأكيد بأن حق الله تبارك وتعالى على العباد جميعاً: توحيده، وعدم الإشراك به، وعبادته سبحانه وتعالى، والإخلاص له، وطاعة أوامره، والانتهاء عن نواهيه، فإذا قام العبد بذلك على وجهه، فإن الله تبارك وتعالى قد جعل لهذا العبد حقاً تفضلاً منه وإحساناً ورحمة: أن لا يعذب هذا العبد، بل يدخله الجنة ويكرمه، والله تعالى لا يخلف وعده[١٣٢].

وهنا لا بد لنا أن نعرف المراد بالتوحيد، والعبادة، حتى يتبين لكل مسلم كيفية القيام بهذا الحق العظيم على وجهه الصحيح، ليفوز بالجزاء والوعد العظيم، فنقول: التوحيد في لسان العرب وكلامها، من الوَحدة، وهي الانفراد، ومعنى وحّده توحيداً: أي جعله واحداً[١٣٣].

ولفظة التوحيد، شاعت على ألسنة العلماء من قديم الزمان، يجدها من يطالع كتب التفسير وغيرها، حتى إن علماء السلف ألفوا وكتبوا كتباً بهذا العنوان، ولذلك لا بد من معرفة مدلول هذه الكلمة في لسان الشريعة، فأقول:

تكاد تتفق كلمة العلماء المحققين على أن التوحيد في لسان الشريعة، هو: إفراد الله تعالى بما يختص به من الربوبية، والعبادة، والأسماء والصفات.

---

(١٣١) البخاري في صحيحه (٢٨٥٦) ومسلم في صحيحه (٣٠).

(١٣٢) انظر فتح الباري: ١١/٣٤٦-٣٤٨.

(١٣٣) مقاييس اللغة، لابن فارس: ٦/٩٠، القاموس المحيط، ص ٣٢٤.

وكلمة الربوبية هنا مأخوذة من اسم الله تعالى (الرب) فهي كلمة شرعية، تداولها العلماء من قديم على ألسنتهم، وفي مؤلفاتهم، يعنون بها ما ذكره القرآن عن الرب وأنه الخالق الرازق إلى آخره من معاني الربوبية التي لا يجهلها مسلم.

وعليه: فإذا قيل (توحيد الربوبية) فإن العلماء يعنون به هذا المعنى، وأنه يجب أن يُفرد الله تبارك وتعالى ويُوحد، في هذا الباب، فليس له شريك في ربوبيته تعالى وتقدس.

وأما العبادة في لغة العرب، فتدور معانيها عندهم، على: التذلل[١٣٤].

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة، وأنها تسمي الطريق المذلل الذي قد وطئته الأقدام، وذللته السابلة: معبداً ... ومنه سمي العبد عبداً لذلته لمولاه[١٣٥].

وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦) رحمه الله تعالى: ومعنى العبادة في اللغة: التذلل والانقياد، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله متذلل لمشيئته، لا يملك أحد لنفسه خروجا عما خُلق عليه.

وأما معنى العبادة وما يراد بها في الشريعة، فقد تنوعت عبارات العلماء في ذلك، ويكاد يكون المدلول واحداً، ومن ذلك:

ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿اعبدوا﴾ أي: وحّدوا، وقال أيضاً: كل ما ورد في القرآن من العبادة، فهو بمعنى التوحيد[١٣٦].

وقال الإمام أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي (ت٣٧٥) رحمه الله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾ أي: نوحد، ونطيع، وقال بعضهم: يعني: إياك نطيع طاعة، ونخضع لك فيها[١٣٧].

---

(١٣٤) مقاييس اللغة: ٤/٢٠٥، لسان العرب: ٣/٢٧٤.

(١٣٥) جامع البيان، سورة الفاتحة، آية (٤).

(١٣٦) تفسير السمعاني، سورة الفاتحة، آية (٤) معالم التنزيل، للبغوي، سورة الفاتحة، آية (٤).

(١٣٧) تفسير السمرقندي، المسمى بحر العلوم، سورة الفاتحة، آية (٤).

وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٦) رحمه الله تعالى: العبادة: الطاعة، مع التذلل[١٣٨].

وقال العلامة فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦) رحمه الله تعالى: العبادة: فعل أو قول، أو ترك فعل أو ترك قول، يُؤتى به لمجرد اعتقاد أن الآمر به عظيم يجب قبوله[١٣٩].

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرطُبي (ت٦٧١) رحمه الله تعالى: والعبادة: عبارة عن توحيده، والتزام شرائع دينه.

وقال العلامة عبد الرحمن بن يحيى المُعلِّمِي اليماني (ت١٣٨٦) رحمه الله تعالى: وتحرير العبارة في تعريف العبادة أن يُقال: العبادة: خضوع اختياري، بسلطان، يُطلب به نفع غيبي.

ثم فسر التعريف بقوله: فقوله (خضوع) يتناول ما كان بالطاعة، وما كان بالتعظيم. وقوله (اختياري) يخرج به المكره، ونحوه. وقوله (يُطلب به) أي من شأن ذلك. وقوله (نفع) أُريد به ما يشمل دفع الضرر. وقوله (غيبي) المراد بالنفع الغيبي: ما كان على خلاف العادة المبنية على الحسّ والمشاهدة.

وهذا تعريف للعبادة من حيث هي، فإن أريد تعريف عبادة الله عن وجل، زِيد (بسلطان). وهو يقصد بالسلطان: الدليل على العبادة، فقد قال: الخضوع والتعظيم على سبيل التدين، إما أن يكون أنزل الله تعالى به سلطاناً، أو لا، فما أنزل الله به سلطاناً فهو عبادة له عز وجل وحده لا شريك له ... وأما مالم ينزل الله تعالى به سلطاناً، فهو عبادة لغيره[١٤٠].

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٤) رحمه الله تعالى: العبادة في الشرع ... فعل ما يُرضي الرب من خضوع، وامتثال واجتناب[١٤١].

---

(١٣٨) معالم التنزيل، سورة الفاتحة، آية (٤).

(١٣٩) التفسير الكبير، سورة الزمر، آية (٢-٣).

(١٤٠) رفع الاشتباه عن العبادة والإله، للمعلمي: ٧٣٣-٧٣٤، وانظر منه: ٧٣١- ٧٣٢. وهذا الكتاب نافع جداً في موضوعه، فرحم الله مؤلفه.

(١٤١) التحرير والتنوير، سورة الفاتحة، آية (٤).

فأنت ترى أن عباراتهم تدور حول: إفراد الله تعالى بالعبادة والطاعة، مع الخضوع والذل له سبحانه وتعالى، ويشمل ذلك جميع الأوامر والنواهي، وسواء كانت تلك الطاعة ظاهرة أم باطنة.

ويمكن أن نقول: إن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، يفعلها العبد متقرباً بها إلى الله تعالى، طلباً لمرضاته.

وما جاء من تفسير العبادة بالتوحيد، فهو ما ذكرناه من جهة توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، وذلك أن التوحيد والعبادة عبارتان متلازمتان لا يمكن أن تنفك إحداهما عن الأخرى، إذ لا يُقبل عمل بلا توحيد، ولا يصح توحيد بلا عمل.

يقول العلامة فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦) رحمه الله تعالى، بعد أن ذكر قول الله تعالى ﴿إنني أنا الله لا إله الا أنا فاعبدني﴾ طه (١٤): أمره بعد التوحيد بالعبودية؛ لأن التوحيد أصل والعبودية فرع، والتوحيد شجرة، والعبودية ثمرة، ولا قِوام لأحدهما إلا بالآخر[١٤٢].

وبناء على ما سبق من هذا الكلام على العبادة، فإن العلماء إذا قالوا: (توحيد العبادة) وربما قالوا (توحيد الألوهية) أو (توحيد الإلهية) وربما قالوا غير ذلك من الألفاظ التي تدل على المعنى السابق للعبادة، وأنه يجب على كل عبد أن يوحد الله تبارك وتعالى ويُفرده بالعبادة.

وقد جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى تبين لنا أن الله تبارك اسمه إنما خلق الخلق لعبادته، وأمرهم بها، وأنه جل وعلا إنما أرسل الرسل من أجل أن يأمروا الناس بإخلاص العبادة له سبحانه، وأنه أنزل الكتب على خلقه حتى تستبين لهم هذه القضية الكبرى، فقام الرسل حق القيام بما أُمروا به، وأدوا الأمانة، ونصحوا أممهم، وبلغوا البلاغ المبين، فقامت الحجة على العباد، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وما ربك بظلام للعبيد، ومن هذه الآيات، قول الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ الذاريات (٥٦).

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى وهو يتكلم عن هذه الآية، بعد أن حكى أن في الآية قولين: وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما خلقت الجن والإنس إلا ليُذعنوا لي بالعبودية.

---

(١٤٢) التفسير الكبير، سورة الفاتحة، آية (٤) وانظر منه سورة طه، آية (١٤).

ثم روى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إلا ليُقروا بالعبودية طوعاً، وكرهاً. ثم قال: وأولى القولين في ذلك بالصواب: القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وهو: وما خلقت الجن والإنس إلا: لعبادتنا، والتذلل لأمرنا(١٤٣).

وقيل: إلا ليعبدون: إلا ليوحدوني، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء، دون النعمة والرخاء، بيانه قوله عز وجل ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾(١٤٤) العنكبوت (٦٥).

وقد تقدم أن هاتين اللفظتين (التوحيد والعبادة) لا يمكن أن تنفك واحدة منهما عن الأخرى، فلا عبادة مقبولة بلا توحيد، ولا يصح توحيد بلا عمل، وهذا من تنوع السلف في التعبير عن معاني القرآن العظيم.

وقال الله تعالى: ﴿يـأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ البقرة (٢١-٢٢).

وهذا أول أمر في كتاب الله تعالى للناس بالعبادة.

قال الإمام محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: أمر جل ثناؤه سائر خلقه المكلفين بالاستكانة والخضوع له بالطاعة، وإفراد الربوبية له، والعبادة، دون الأوثان والأصنام والآلهة؛ لأنه جل ذكره هو خالقهم، وخالق من قبلهم ... وخالق أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم(١٤٥).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال الله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ للفريقين جميعا من الكفار والمنافقين، أي: وحّدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم (١٤٦).

وقال الإمام أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي (ت٣٧٥) رحمه الله تعالى: يا أيها الناس لجميع الخلق، يقول للكفار: وحّدوا ربكم، ويقول للعصاة أطيعوا ربكم،

---

(١٤٣) جامع البيان، سورة الذاريات، آية (٥٦).

(١٤٤) معالم التنزيل، سورة الذاريات، آية (٥٦).

(١٤٥) جامع البيان، سورة البقرة، آية (٢١-٢٢).

(١٤٦) جامع البيان، سورة البقرة، آية (٢١-٢٢).

ويقول للمنافقين: أخلصوا بالتوحيد معرفة ربكم، ويقول للمطيعين: اثبتوا على طاعة ربكم[١٤٧].

وقال العلامة النحوي أبو الحسين عبيد الله بن أحمد ابن أبي الربيع الإشبيلي السبتي (ت٦٨٨) رحمه الله تعالى: الرب هو المالك، والرب أيضا هو المصلح، وهو سبحانه مالك للخلق، ومصلح لأمورهم، فهو الرب على الحقيقة، ... وكانوا يسمون أصنامهم التي يعبدونها أرباباً، فقال سبحانه ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ أي انظروا من الذي خلقكم فاعبدوه، والأحبار لم يَخلقوا، ولا العباد خَلقوا، بل خُلقوا، ولا الأصنام، بل عُملت، فالذي يستحق العبادة = الرب الذي خلق الخلق، ولم يستعن على خلقهم بشيء، بل قال: كن، فكانوا، هذا الذي يستحق أن يُعبد[١٤٨].

وقال أيضاً على قوله تعالى ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ البقرة (٢٢): جَعلِهم لله أنداداً من سخف عقولهم وضعفها، لأنه سبحانه لا ند له ولا مثل، فإذا لم يكن له ند واحد فكيف تكون له أنداداً؟ وهذه القاعدة أنه سبحانه لا ند له مسلّمة عند العقلاء كلهم، لأنه الخالق والرازق والنافع والضار، وليس غيره يخلق ولا يرزق، ولا يضر ولا ينفع، فكيف يكون نداً[١٤٩].

وقال الإمام محمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣) رحمه الله تعالى: يكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا على وجوب توحيده في عبادته[١٥٠].

وكأن الله تبارك وتعالى في هذه الآية يبين لنا حقيقة قد تخفى على من قل نصيبه من تأمل القرآن العظيم فيما يتعلق بأدلة وبراهين التوحيد، ألا وهي:

أن من أقرّ واعترف وأدرك حقاً أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق الخلق، ورباهم بالنعم، فيجب عليه وجوباً حتمياً أن يتوجه لهذا الخالق المنعم العظيم بالعبادة والتقرب، وأن لا يصرف شيئاً من عبادته لغير الله ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون﴾ الأعراف (١٩١) ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾ النمل (٦٣).

---

(١٤٧) تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، سورة البقرة، آية (٢١، ٢٢): ص: ١٧٦.

(١٤٨) تفسير القرآن الكريم، لابن أبي الربيع الأشبيلي، سورة البقرة، آية (٢١، ٢٢): ص: ١٧٦.

(١٤٩) تفسير القرآن الكريم، لابن أبي الربيع الأشبيلي، سورة البقرة، آية (٢١، ٢٢): ص: ١٧٦.

(١٥٠) أضواء البيان: ١٩/٣.

وقال تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ النساء (٣٦).

يقول الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يُوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته[١٥١].

وإذا تقررت هذه الحقيقة الكبرى، فواجب على العاقل أن يجتهد في تمييز العبادة عن غيرها، حتى يكون في توحيده على علم وبصيرة، ولا يمكن له ذلك إلا بأن يتدبر ويتأمل كلام الله تبارك وتعالى، وكلام نبيه ﷺ وكلام أهل العلم المحققين، الذين بينوا للناس كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ معتمدين في بيانهم على أصول العلم وقواعد العرب في كلامها، حتى بينوا للناس ما هو عبادة لله تعالى، مما ليس بعبادة، فقد ضل في هذه المسألة أقوام، وتحيرت أفهام، مما نشأ عن ذلك خلط عند كثير من المسلمين، وبسبب هذا الخلط صُرفت عبادات لغير الله تعالى، ووقع بعض الناس في الشرك بالله تعالى من حيث يعلمون أو لا يعلمون، وهذا أعظم واجب على أهل العلم في كل زمان ومكان أن يجتهدوا في تجريد التوحيد وبيانه للناس.

وسوف تكون هذه الأبواب الآتية إن شاء الله تعالى مُجلّية ومُوضّحة لكثير من العبادات، التي قد يقع فيها شيء من الخلل، بسبب الجهل والتقليد الأعمى عند كثير من الناس، فنسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

---

(١٥١) تفسير ابن كثير، سورة النساء، آية (٣٦).

٢-فصل في بيان كيف بدأ الشرك في هذه الأمة بعد مبعث نبينا محمد ﷺ.

تقدم الكلام على أن الناس كانوا على التوحيد من لدن آدم ﷺ حتى فشا الشرك في قوم نوح، وكان ذلك كما تقدم بسبب الغلو في الصالحين، حتى تعلق الناس بهم وعبدوهم من دون الله تعالى، فبعث الله نوحاً ﷺ إليهم يدعو الناس إلى التوحيد، ونبذ الشرك بالله تعالى، وما آمن معه إلا قليل.

وبعد بعثة النبي محمد ﷺ ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وبعد موته عليه الصلاة والسلام مضى عهد الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وعصر التابعين وتابعيهم، والناس ينعمون بنعمة التوحيد، ولم يكن هناك مظهر من مظاهر الشرك والوثنيات الجاهلية، فلا غلو في مخلوق، ولا تعلق بغير الله تعالى، فلم يرُ بناء مشيّد لا على قبر نبي، ولا صحابي، ولا أحد من أهل بيت النبي ﷺ ولا صالح أصلاً، ولم يوجد من ذلك شيء في بلاد الإسلام، لا في الحجاز، ولا اليمن ولا الشام ولا العراق ولا مصر ولا خراسان ولا المغرب، ولا غيرها من بلاد الإسلام.

وبعد انتشار الفتوحات الإسلامية، ووصول الإسلام إلى عدد كبير من البلدان والأمصار، وسقوط بعض الدول التي كان لها شأن في ذلك الزمن، ومع ضعف الخلافة الإسلامية، بدأ المتربصون بالإسلام وأهله يكيدون لهذا الدين العظيم، ويبحثون عن الطرق والوسائل التي قد ترد الناس إلى جاهليتهم الأولى، وبدأ المكر يسير في اتجاهين متوازيين، أحدهما متظاهر بالدين، والآخر لا ديني.

فأما الاتجاه اللاديني فهو تزيين بعضهم لبعض الأمراء ادخال ثقافات وأفكار الشعوب الوثنية القديمة على المسلمين، وتمثل هذا في إقناع المأمون الخليفة العباسي السادس (ت٢١٨) بتعريب كتب اليونانيين وثقافاتهم، فتم تعريب تلك الكتب، بما تحويه من ضلالات وانحرافات لا حد لها، وشاعت تلك الكتب المعربة بين المسلمين، وعكف عليها كثير من أهل الفطنة والذكاء، وتأثر بما تحويه جماعات من أمثال فيلسوف العرب يعقوب بن إسحاق الكندي (ت٢٥٦) المتهم في دينه، ويقال: إنه شيعي، وأبي نصر الفارابي التركي (ت٣٣٩) صاحب المقالات الضالة التي كفره العلماء من أجلها، وأبو علي ابن سيناء (ت٤٢٨) وهو مثل سابقه في الضلال، وغيرهم، فتخرج من هذه المدرسة البئيسة عدد من شرار الخلق، أثروا في كثير من الناس، وكان من آثار هذه المدرسة إنكار كثير من حقائق الدين وثوابت الإيمان، والقول بخلق القرآن، وتحكيم العقول في الوحي المنزل، وغير ذلك من الشرور التي عمت وطمت، فدخل على المسلمين بسبب ذلك بلاء عظيم، وقُتل بسبب هذه المقالات الضالة عدد من خيار علماء المسلمين، الذين قاموا بالرد على تلك

الأباطيل وإنكارها، وسجن آخرون، وعمّ الشر في الأرض، ولا زال المسلمون يعانون من آثار ما صنع المأمون إلى يوم الناس هذا.

وأما الاتجاه الآخر الذي تظاهر أصحابه بالتدين، فهو ما حصل حينما وقعت الفتنة على علي ﵁ وتشيع له جماعة، وخرج عليه آخرون، رأى أولئك الضالون أن باب التشيع الذي انفتح على الأمة يمكن من خلاله الدخول على الإسلام، وإفساد عقائد الناس بواسطته، فتدثروا بهذا الثوب الفضفاض الذي هو حب على وآل بيته، وأخذوا ينسجون الروايات الكاذبة التي تحمل في طياتها عبارات مؤثرة تشحن الناس شحناً عاطفياً غير منضبط، يتجاوز حدود العقل والشرع، ويسوق الناس إلى الغلو في علي ﵁ وآل بيت النبي ﷺ وبالمقابل يُزهّد الناس في حب صحابة النبي ﷺ بل ويرميهم بالعظائم والدواهي، وأخذوا يتأولون بعض الآيات والأحاديث على غير معناها الصحيح، ويفسرونها على وجه لا يقبله عقل ولا يسنده نقل، ويسوقون روايات مكذوبة عن آل البيت، صنعوها، تؤيد ما يقولون، ونتج عن هذا الباطل مقولات ومعتقدات فاسدة، منها: القول بأن القرآن الكريم تم تحريفه بعد موت النبي ﷺ وأن الخليفة بعد النبي ﷺ إنما هو علي ﵁ وأن الصحابة رضي الله عنهم اغتصبوا الخلافة منه، بل والقول بأن الصحابة كلهم ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ ما عدا خمسة أو ستة، وأن الأئمة بعد رسول الله ﷺ منصوص عليهم، وأنهم معصومون، في كلام يطول، لا يصدقه من عند مسكة من عقل، ونجحوا في تعليق كثير من الناس بهؤلاء الأئمة من دون الله تعالى.

ومع هذا وجدوا من الناس من يصدقهم، ويسير في ركابهم، وقوي شر هذه الطائفة التي تدعي بأنها شيعة علي ﵁ واقتنع كثير من الناس بدعاواهم، ونجحوا في تعليق الناس بغير الله تعالى، وصار الناس يعتقدون في هؤلاء الأئمة اعتقادات لا تجوز إلا في الله تعالى، وانتشر الشرك في الأرض بسبب هذه الأفعال كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وبعد موت الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، المعروف بجعفر الصادق ﵁ وعن آبائه، وهو الإمام السادس عند هؤلاء الضالين، اختلفوا في الإمام من بعده، وبسبب هذا الاختلاف انقسموا إلى طائفتين كل واحدة تضلل الأخرى بل تكفرها، وهما:

الطائفة الأولى: الإسماعيلية، وهم يرون أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه الأكبر إسماعيل، ويقال: إن مؤسس هذه الطائفة رجل يهودي، ويُقال: إنه مجوسي[١٥٢].

وقد تشعبت هذه الطائفة الخبيثة إلى فرق متناحرة، يجمعها هدف واحد كما تقدم، هو تحريف الدين وتبديله، وهذه الفرق، هي:

الإسماعيلية (القرامطة) يقال: إنها منسوبة إلى حمدان قرمط (ت٢٧٨) وهي فرقة متشددة متطرفة، حكموا البحرين وأجزاء من جزيرة العرب، وشنوا هجماتهم حتى وصلوا المغرب ومصر، وكان شرهم عظيماً، ومن ذلك أنهم اعتدوا على الكعبة وأخذوا الحجر الأسود وقتلوا من الحجيج كما يقال: ثلاثين ألفاً، وذلك سنة (٣١٧) وبنوا بيتاً بالقطيف، ووضعوا به الحجر الأسود، وأمروا الناس بالحج إليه، ولم يُطاعوا في ذلك، وتم استعادة الحجر الأسود منهم بعد اثنين وعشرين عاماً، وفتنتهم مشهورة[١٥٣] وأراح الله المسلمين من شرورهم بسقوط دولتهم سنة (٤٦٧).

والإسماعيلية العبيدية، والتي بدأت بالظهور في اليمن سنة (٢٦٦) وامتد نشاطهم إلى شمال إفريقيا، وأسسوا لهم دولة بتونس سنة (٢٩٧) ثم استولوا على مصر سنة (٣٦٢) بإمرة المعز لدين الله العبيدي، وامتد سلطانهم إلى الشام، وأجزاء من جزيرة العرب، واستمرت هذه الطائفة الخبيثة تحكم مصر والحجاز واليمن، حتى أزال الله تعالى دولتهم، سنة (٥٦٧) على يد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، وجزاه عن الإسلام خيراً[١٥٤].

وقد تسمّت هذه الدولة العبيدية بالدولة الفاطمية كذباً وتمويهاً على الناس؛ لأجل التغرير والتلبيس، حتى يُظن أن لهم علاقة بفاطمة رضي الله عنها، وإنما هي في الحقيقة (الدولة العبيدية) وقد ذكر المؤرخون الثقات أن زعماء هذه الدولة لا علاقة لهم بالنسب الهاشمي ولا الفاطمي.

وللإمام أبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت٥٦٥) رحمه الله تعالى، كتاب عن هذه الدولة سماه (كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد) قال فيه: يدّعون الشرف، ونسبتهم إلى مجوسي، أو يهودي، حتى اشتهر لهم

---

(١٥٢) انظر كتاب: الفرق بين الفرق، عبد القاهر الجرجاني، شرح الصدور بأحكام المساجد والقبور، علي أحمد عبد العال الطهطاوي، موسوعة التشيع، عبد الباسط الناشي.

(١٥٣) انظر: سير أعلام النبلاء: ١٤٧/١٥، الجامع في أخبار القرامطة، سهيل زكار.

(١٥٤) انظر: سير أعلام النبلاء: ١٥/١٨٠-١٨١.

ذلك، وقيل: الدولة العلوية، والدولة الفاطمية، وإنما هي الدولة اليهودية، أو المجوسية، الملحدة الباطنية[١٥٥].

وكان هؤلاء العبيديون شراً على الإسلام وأهله.

قال الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨) رحمه الله تعالى عنهم: قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية. وقال أيضاً: وأما العبيديون الباطنية، فأعداء الله ورسوله[١٥٦] .

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى: قال أبو يوسف الرعيني: أجمع العلماء بالقيروان أن حال بني عبيد حال المرتدين والزنادقة[١٥٧].

ومن طوائف الإسماعيلية أيضاً: الحشاشون، كانوا مفرطين في تدخين الحشيش، فلقبوا بذلك، انشقوا عن العبيديين، وأسس دولتهم بفارس: الفارسي الحسن بن الصباح، ثم انتشروا في بلاد الشام سنة (٤٩٨) وكان لهم قلاع يحتمون بها، ومنها قلعة الموت، وكانوا معروفين باغتيال من يخالفهم، ويُصنفون بأنهم أكثر الفرق دموية في التأريخ، فقد استمروا في الغارة علىً القوى السنية المحيطة بهم، حتى أنهى الله أمرهم أمام جيوش هولاكو المغولي سنة (٦٧١) وقُتل منهم خلق كثير، ولا زال لهم بقية إلى الآن، ومنهم الطائفة الأغاخانية، وهم منتشرون في العالم، ومركزهم الرئيس في كراتشي في باكستان، ويقدر عددهم بحوالي عشرة ملايين إنسان، وهم فرقة خارجة عن الإسلام[١٥٨].

ومنهم أيضاً الدروز، الموجودون الآن في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، وفي عدد من دول غير إسلامية أخرى، يُنسبون فيما قيل لمحمد بن إسماعيل الدرزي، ويُذكر أن هذه الجماعة تأسست في عهد الحاكم بأمر الله العبيدي، سنة (٤١١) ويُطلقون على أنفسهم (أهل التوحيد، أو الموحدون) والتوحيد منم بريء، وهم منغلقون على أنفسهم، لا يرحبون بدخول أحد في دينهم، ولا يُطلعون أحداً على

---

(١٥٥) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين: ٢١٦/١، سير أعلام النبلاء: ٢١٣/١٥، تاريخ الإسلام للذهبي، حوادث سنة: ٣٢١-٣٣٠، ص: ٢٣.

(١٥٦) سير أعلام النبلاء: ١٤١/١٥، ٣٧٣/١٥.

(١٥٧) انظر: الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة: ٣٨٨/١، وكتاب: الإسماعيلية المعاصرة، لمحمد الجوير.

(١٥٨) سير أعلام النبلاء: ١٤١/١٥، ٣٧٣/١٥.

عقائدهم، ويقال: إن معظم الدروز لا يعتبرون أنفسهم مسلمين، ولهم عقائد غريبة وطقوس عجيبة، ويُقال: إن عددهم يصل إلى مليوني إنسان.

ومنهم: الإسماعيلية البُهَرة، ويقال: إنهم من العبيدين الذي كانوا في مصر، هاجروا بعد سقوط الدولة العبيدية، ويتواجدون الآن في الهند وباكستان وبنقلاديش واليمن والأمارات، تركوا السياسة واشتغلوا بالتجارة، فهم أهل ثراء فاحش، وصلوا إلى الهند، واختلط بهم الهندوس الذين دخلوا في دينهم، وعرفوا بالبهرة، وهذه الكلمة لفظ هندي قديم، بمعنى التاجر، يصل عددهم في العالم إلى مليون ونصف المليون إنسان. ومن هؤلاء البهرة انشقت الطائفة المعروفة بالمكارمة، سنة (٩٩٩) وهم يتواجدون في اليمن، وفي نجران، ومنهم قليل في الهند وباكستان وبنقلاديش، ولهم عقائد باطلة، نسأل الله العافية[١٥٩].

والطائفة الثانية: الاثنا عشرية، وهم يرون أن الإمام بعد جعفر الصادق: ابنه موسى الكاظم، وربما قيل عنهم (الموسويون) وهم الملقبون بالاثني عشرية، فهم يؤمنون باثني عشر إماماً، آخر هؤلاء الأئمة (محمد بن الحسن المهدي) الذي يزعمون أنه ولد سنة (٢٥٥) ثم غاب عن الوجود، وسوف يأتي في آخر الزمان كما يقولون، وينسجون حوله من الخرافات ما يضحك كل عاقل، وهذه الطائفة هم الموجودون الآن في إيران والعراق وأذربيجان والبحرين ولبنان، ولهم انتشار كبير في دول العالم الإسلامي، وهم الآن أكثر الشيعة في الأرض، وقد تبعوا من سبقهم في الضلال، واجتهدوا في هذا الضلال، حتى صنفوا تصانيف تنضح بالكفر البواح، ولهم مصنفات في الحج إلى المشاهد والقبور، وكيفية زيارات القبور والدعاء عندها، وغير ذلك من الضلال، يُسندون كل هذا الضلال بأسانيد كاذبة إلى أئمة أهل البيت رضي الله عنهم، وشر هذه الطائفة الخبيثة لم يعد سراً فقد شاع وذاع، وانكشفت كثير من حقائقهم، ولهم جهود جبارة في كثير من دول المسلمين لنشر هذا الفكر المنحرف القائم على الشرك بالله تعالى، نسأل الله تعالى أن يكفي المسلمين شرورهم، وأن يرد كيدهم في نحورهم.

---

(١٥٩) انظر للوقوف على شر هذه الطوائف: فضائح الباطنية، لأبي حامد الغزالي. الشرك في القديم والحديث، لأبي بكر زكريا. الإسماعيلية المعاصرة، محمد بن أحمد الجوير. الإسماعيلية، إحسان إلهي ظهير. طائفة الإسماعيلية، د. محمد كامل حسين. تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق، محمد عبد الله عنان. أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، لبرنارد لويس. كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، محمد بن مالك اليماني. ماذا تعرف عن البهرة الإسماعيلية، د. أحمد عبد العزيز الحصين. الشيعة الإسماعيلية رؤية من الداخل، علوي طه الجبل. فرقة السليمانية الباطنية، مسفر بن سعيد بن علي.

وقد قام لهذه الطوائف الضالة دويلات كثيرة عبر التأريخ، سادت ثم بادت، ووصلنا عن بعضها أخبار مفجعة في الظلم والبغي والطغيان، والإسراف في القتل وسفك الدماء، وتغيير الدين وتبديله، وعند الله تجتمع الخصوم، ومن هذه الدول:

دولة القرامطة حكمت إقليم البحرين، وأجزاء أخرى من جزيرة العرب، من (٢٨٥-٤٦٧) وهي كما تقدم حركة باطنية هدامة، عقائدهم كفرية.

دولة العُبيديين (الدولة الفاطمية) نسبة إلى عبيد الله المهدي، تأسست في تونس، ثم انتقلت إلى مصر، من (٢٩٦-٥٦٧).

دولة البويهيين، في العراق وما يتصل به من بلاد فارس، من (٣٢١-٤٤٧) ويقال: إنهم خليط من الزيدية، والاثنا عشرية.

الدولة الصليحية حكمت معظم الأراضي اليمنية، من (٤٣٩-٥٣٢) وهي دولة إسماعيلية[١٦٠].

الدولة الصفوية، نسبة إلى إسماعيل الصفوي، حكمت إيران وأذربيجان والبحرين وأرمينيا وشرق جورجيا، وأجزاء من المناطق الشمالية من القوقاز، والعراق، والكويت، وأفغانستان وباكستان، وتركيا، وسوريا وتركمنستان، وأوزبكستان، من (٩٠٦-١١٤٨) وبقيام هذه الدولة اتخذت إيران المذهب الشيعي الاثني عشري مذهباً رسمياً لها، ولا زالت إلى يوم الناس هذا على هذا المذهب الفاسد.

الدولة القاجارية، مملكة شملت معظم الأراضي الإيرانية، وأرمينا، وأذربيجان من (١٢٠٨-١٣٤٣) وهم اثنا عشرية.

والعجيب أن هاتين الطائفتين الإسماعيلية، والاثنا عشرية، يكفر بعضهم بعضاً، بل يوجد هذا التكفير في الطائفة الواحدة يكفر بعضهم بعضاً، فالإخبارية من الاثنا عشرية يكفرون الأصولية، والأصولية يكفرون الإخبارية، وهذا أعظم دليل على بطلان ما يعتقدون، نعوذ بالله من الضلال.

والمتأمل في عقائد هذه الطوائف الضالة يجد أنها -كما تقدم- تتخذ من تقديس آل البيت وإطرائهم شعاراً لها، حتى تكسب ولاء ضعاف العقول، بينما تقوم ممارساتهم وأفعالهم على الاعتناء بالقبور، وتشييد الأضرحة والمشاهد، وتحري الدعاء عندها، وشد الرحال إليها في أعياد موسمية معينة، في خشوع وخضوع

(١٦٠) الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، لحسين بن فيض الله الهمداني الحرازي.

مصطنع؛ لإيهام العامة والسذج، حتى وصل بهم الأمر إلى اعتقاد أن لهؤلاء الموتى تصرفاً في الكون، ولهم طرائق عجيبة، ومكر كبار، في إقناع الناس بما هم عليه، ولديهم أساليب عجيبة مؤثرة، وجهد جبار، في تعليق الناس بغير الله تعالى، وربط العامة بعلمائهم، وإيهامهم بأن علماءهم ينفذون أوامر الله، وأنهم منصبون من الله تعالى، وأنهم هم المسلمون الحقيقيون، وغيرهم مرتد عن دين الإسلام، وقد تمكنوا من بث هذه المعتقدات الفاسدة بين الناس، ولهم متابعة لأتباعهم في كل أقطار الأرض، ودعم غير محدود، ولهم انتشار كبير في بلاد المسلمين، والله لا يصلح عمل المفسدين، والإمام أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت١٤٨) إمام من أئمة المسلمين، وهو بريء من هذا الطوائف الخبيثة الضالة، رحمه الله تعالى ورضي عنه وعن آبائه أجمعين.

والمتتبع لحركة الشرك بعد بعثة النبي ﷺ وفتنة الناس بالقبور والأضرحة والأولياء ودعاء المقبورين من دون الله تعالى، واتخاذهم شفعاء ووسطاء، كما كان عليه أهل الجاهلية، يجد أن ذلك كله لم يكن معروفاً قبل هؤلاء الضالين المضلين، ولا نشك ولا نرتاب أن هؤلاء المجرمين هم الذين نشروا فكرة تعظيم المقبورين، والبناء على القبور، وتعليق الناس بهذه الأضرحة والمشاهد، في الدول المسلمة التي تغلبوا عليها وحكموها، فقد أثبت التاريخ أن أول من اخترع البناء على القبور في هذه الأمة، هم هؤلاء، مضاهاة لأسلافهم الأولين، الذين كانوا يتخذون القبور مساجد، ومن أوائل هذه الأضرحة التي شيدوها:

الضريح المنسوب كذباً للخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنجف الذي بُني سنة (٣١٧)(١٦١) وغيره من الأضرحة، والتي أصبحت بعد ذلك مزارات تدعى وترجى من دون الله تعالى، والعراق مليء بالأضرحة والقبور التي يرحل إليها الشيعة على اختلاف طوائفهم من مشارق الأرض مغاربها، وقلّ جامع من جوامع العراق إلا وفيه ضريح، إما لنبي أو صحابي، أو غيرهم، بدأً بالنبي شعيب، ثم يوشع بن نون صلى الله

(١٦١) والمعروف المشهور: أن علياً رضي الله عنه وأرضاه مدفون بقصر الإمارة بالكوفة، وأنه أُخفي قبره خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوه، فإنهم كانوا يكفرونه ويستحلون قتله، وأما المشهد المشهور بالنجف، فالمحققون من أهل العلم يقولون: إنه ليس لعلي رضي الله عنه، بل قيل: إنه قبر المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وقد قال ابن كثير رحمه الله تعالى في البداية والنهاية: ٧/٣٣٠: وما يعتقده كثير من جهلة الرافض من أن قبره بمشهد النجف فلا دليل على ذلك، ولا أصل له، وإنما ذاك قبر المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، حكاه الخطيب البغدادي عن أبي نعيم الحافظ، عن أبي بكر الطلحي، عن محمد بن عبد الله الحضرمي الحافظ، عن مطر، أنه قال: لو علمت الشيعة قبر هذا الذي يُعظمونه بالنجف لرجموه بالحجارة، هذا قبر المغيرة بن شعبة. وانظر: قبور ومشاهد مكذوبة، سليمان الخراشي: ص: ٢٣. قلت: ولعلي رضي الله عنه أيضاً مشهد في دمشق، كما في كتاب: مشاهد آل البيت في الشام: ص: ١٥.

عليهما وسلم، ثم الخَضِر، وغيرهم، واذكر من تشاء من الأولياء والصالحين تجد له ضريحاً في العراق يُقدس ويُزار، ويدعى من دون الله تعالى، والله أعلم بحقيقتها[١٦٢].

وبلاد الشام كذلك مليئة بالأضرحة والمشاهد، وقد ذكر بعض من كتب في ذلك أن بها (٤٩) مشهداً لآل البيت، فضلاً عن غيرهم من الأنبياء والصحابة والصالحين [١٦٣].

وكذلك ابتليت مصر بعدد هائل من هذه الأضرحة والقبور، ومنها:

ضريح السبع بنات في الفسطاط، بناه كما يقال: الحاكم بأمر الله العبيدي سنة (٤٠٠).

ولا شك أن هذه الأضرحة التي بنيت في مصر إنما بدأ بتشييدها العبيدون قبحهم الله، مع ما في بعضها من الكذب، كما يزعمون في المشهد المنسوب لزينب بنت علي، أخت الحسين رضي الله عنها، ولا يُعلم أنها أتت مصر أصلاً[١٦٤] والجهلة خاصة من أهل الأقاليم يأتون إلى هذا الضريح يعتقدون أن زيارته شرف وبركة، يدعون الله أن ينالونها، وحُكي أن بعضهم زعم أنه عالج عينيه بالزيت الذي يُشعلون به القنديل المعلق داخل المشهد وفوق الضريح.

ومن ذلك المشهد الذي يزعمون أن الحسين بن علي رضي الله عنهما مدفون فيه في القاهرة، والحسين رضي الله عنه، مدفون في كربلاء، ويزعمون أن رأسه مدفون في مصر، وإن تعجب فعجب حينما يُذكر أن الأماكن التي ذُكر أن رأس الحسين

---

(١٦٢) انظر: مقال: بعض أشهر المزارات والأضرحة والمقامات المزعومة في العراق، على الشبكة.

(١٦٣) انظر كتاب: مشاهد ومزارات آل البيت في الشام، هاشم عثمان، وهو من القبوريين، فقد ذكر عدداً هائلاً من هذه الأضرحة والقبور في جميع المدن السورية، ذكر مشاهد آل البيت وأنها (٤٩) مشهداً، ثم ذكر مشاهد الأنبياء والأولياء.

(١٦٤) كتب بعض الجهلة من الصوفية كتباً بعنوان (العقيلة الطاهرة السيد زينب) ومما جاء فيه، ص: ٦١: كم من مكروب نفس الله كربته بنفحتها، وكم من مريض عميد توالت عليه الأوصاب، وتواترت عليه الأسقام، وترادفت عليه الأوجاع، فتقمص بزيارتها ثوب العافية ...وفيه: ص: ٧١: وهو يتكلم عن حرم الضريح: مازال هذا الحرم قبلة العارفين، وأمن الخائفين، بركاته مشاهدة مرئية، ونفحاته عائدة على زائريه بلا مرية. فقل لي أيها القارئ الكريم لهذا الكلام، ماذا بقي لرب العالمين؟ وقد بين الشيخ محمود المراكبي، في كتابه (القول الصريح عن حقيقة الضريح) أن هذا القبر مكذوب على من دُعي أنه فيه. انظر: كتاب: قبور ومشاهد مكذوبة، سليمان بن صالح الخراشي.

مدفون بها ستة مواضع، منها: القاهرة على ما تقدم، ويقال: في دمشق، ويقال: في الرقّة، ويُقال: في عسقلان، ويقال: في كربلاء، ويُقال: بل في البقيع[١٦٥].

وماذا يصنع لهم الحسين ورأسه، وهو عبد مربوب رضي الله عنه وأرضاه.

ومن ذلك ضريح عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وضريح السيدة نفيسة بنت الحسن، يقول الذهبي رحمه الله تعالى: ولجهلة المصريين فيها اعتقاد يتجاوز الوصف، ولا يجوز، مما فيه من الشرك، ويسجدون لها، ويلتمسون منها المغفرة، وكان ذلك من دسائس دعاة العبيدية[١٦٦].

وضريح السيدة فاطمة الزهراء بنت الحسين، وضريح الإمام الشافعي، وضريح البدوي، وغيرها من الأضرحة التي تزار، ويُقدسها بعض من لا علم عنده من البسطاء والجهلة[١٦٧].

وعامة بلاد المسلمين قد ابتليت بهذا البلاء، وكذلك كثير من بلاد العجم، ومنها إيران، وفيها كما يزعمون ضريح محمد بن موسى الكاظم في شيراز، وقد بُني سنة (٣٦٦) وغير ذلك من الأضرحة والمشاهد التي لا عد لها ولا حصر.

وهناك عدد من الأضرحة بنيت في اليمن في عهد الدولة الصليحية الإسماعيلية الباطنية، وهي امتداد للدولة العبيدية التي حكمت مصر[١٦٨].

وتقديس تلك الأضرحة جزء لا يتجزأ من دين الرافضة، ولهذه الأضرحة مزارات سنوية في أيام معلومة، وجميع هذه الأضرحة تزار، ويلتمس منها البركة، وربما يمارس عندها الشرك الأكبر المتمثل في الاستغاثة بأهلها، وطلبهم المدد، والعياذ بالله تعالى.

وافتتن بذلك خلق من الناس في غياب الدعوة إلى التوحيد، والتحذير من فتنة الغلو في الصالحين، ثم ورث ذلك منهم كثير من الجهلة الذين يدعون الانتساب إلى الطرق الصوفية، فزادوا وقود هذه الفتنة، وأصبحوا يعظمون الموتى من الصالحين، ويبنون على قبورهم الأبنية، ويعكفون على قبورهم، ويعملون لهم الأعياد السنوية، والزيارات الموسمية، وترقّى ببعضهم الحال حتى أصبح يستغيثون بهؤلاء المقبورين،

---

(١٦٥) قبور ومشاهد مكذوبة، سليمان الخراشي: ص: ٣٨.

(١٦٦) سير أعلام النبلاء: ١٠/١٠٦، وانظر البداية والنهاية: ١٤/١٧١.

(١٦٧) انظر: كتاب: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، د. سعاد ماهر.

(١٦٨) انظر: القبورية، نشأتها، آثارها، موقف العلماء منها، اليمن أنموذجاً، للشيخ أحمد المعلم.

وينذرون لهم النذور، لغرض قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وقد يعتقد بعض هؤلاء الجهلة في بعض هؤلاء الموتى أنهم يدبرون الكون، ويتحكمون في أحوال الناس، ولا زال شرهم مستطيراً إلى يوم الناس هذا[١٦٩].

وهناك قبر في اليمن ينسب إلى نبي الله هود ﷺ في حضرموت، على سفح جبل في مسجد بقرية مهجورة، وقد أطلقوا على المكان: شعب نبي الله هود، يحج إليه جمع غفير من البشر من اليمن وغيرهم، في منتصف شعبان من كل عام، وتستمر الزيارة لمدة أربعة أيام، بقيادة زعيم من زعماء الصوفية اليمنيين، هداه الله إلى الحق في محفل كبير، ومريدين كُثر، وقد تحولت الصوفية إلى شر على الأمة[١٧٠].

فعلم بذلك أن وقوع الشرك والفتنة بالقبور والأضرحة في هذه الأمة، إنما هو من أفعال هذه الطوائف الضالة، ولم يكن فاشياً قبل ظهورهم، ولكونهم يدركون أن ضلال البشر وانحرافهم عن التوحيد من قديم الزمان = إنما هو بسبب الغلو في البشر والمخلوقين، والتعلق بهم من دون الله تعالى؛ فقد استغلوا ذلك، وبالغوا في الغلو في الصالحين كما تقدم، وأوقعوا الناس في الشرك بالله تعالى، بمثل هذه الأفعال القبيحة، لما يحملونه من حقد دفين على الإسلام والمسلمين، وقد تحقق لهم شيء مما يريدون، ونسأل الله تعالى أن يرد من ضل من أهل الإسلام إلى الحق، وأن يُعلي شأن التوحيد والموحدين، وأن يخذل الشرك والمشركين، وأن يخلص المسلمين من هذه الطوائف الخبيثة، والله المستعان.

---

(١٦٩) انظر: المصدر السابق، وكتاب: الأضرحة في اليمن من القرن الرابع الهجري، وحتى نهاية العاشر الهجري، للباحث: علي سعيد سيف، رسالة دكتوراه من جامعة صنعاء، الأضرحة والقباب الصوفية في تعز اليمن، أكرم ياسين، أضرحة ومساجد صوفية في مرمى الاستهداف، محمد فرحان، كلاهما على الشبكة.

(١٧٠) انظر: كتاب: زيارة قبر هود عليه السلام وما فيها من ضلالات ومنكرات، للشيخ أحمد المعلم. وهذه الزيارات لهذا القبر، موثقة على (اليوتيوب) لمن أراد أن يرى كيف تفعل الصوفية وزعماؤها بعوام المسلمين وجهالهم، وعامة الناس مخدوعون بهؤلاء الضالين المضلين، المتنفعين بهذا الضلال مادياً ومعنوياً، فاللهم اكف المسلمين شرورهم، وردهم جميعاً إلى الدين الحق رداً جميلاً.

٣-فصل في بيان أن من استهزأ بالله ورسوله ودينه، فقد كفر.

الاستهزاء، ويطلق عليه الاستخفاف، والسخرية، فعل لا يليق بالمؤمن أبداً، وليس هو من صفات الموحدين، والله تعالى نهانا أن يسخر بعضنا من بعض، فقال سبحانه ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن﴾ الحجرات (١١) فكيف إذا كان ذلك بالله تعالى وتقدس أو بكتابه الكريم أو برسله الكرام أو بدينه وشريعته أو بعباده المخلصين إذا كان ذلك لأجل تمسكهم بدينهم.

لا شك ولا ريب أن هذا الاستهزاء من كبائر الإثم والعدوان، على حدود الله تعالى وحرماته، ومن أودية الكفر التي يتردى فيها كثير من الجهال.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء! فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾[١٧١].

قلت: والقرآن الذي نزل فيه، هو قول الله تعالى: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قال استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ التوبة (٦٤-٦٦).

قال الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن حزم (ت ٤٥٦) رحمه الله تعالى:

صح بالنص أن كل من استهزأ بالله تعالى، أو بمَلك من الملائكة، أو بنبي من الأنبياء عليهم السلام، أو بآية من القرآن، أو بفريضة من فرائض الدين، بعد بلوغ الحجة إليه فهو كافر[١٧٢].

---

(١٧١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، وابن جرير في جامع البيان، سورة التوبة، آية (٦٤-٦٦) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى في تحقيق تفسير ابن جرير: ٣٣٤/١٤، وقال العلامة الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، بإطباق المفسرين، في قوم استهزؤوا بالله وآياته ورسوله. العذب النمير: ٦١٤/٥.

(١٧٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ١٤٢/٣.

ويقول تعالى ﴿الذين يلمزون المطوعين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ التوبة (٧٩).

فانظر كيف رتب سبحانه وتعالى هذه العقوبة العظيمة على هذا الفعل المشين، والآية تخبر عن أناس يسخرون من المؤمن الغني ويقولون إنما تصدق رياء وسمعه، ويسخرون من المؤمن غير الغني الذي يتصدق بالشيء القليل، ويقولون: إن الله غني عن صدقة هذا، ولم يسلم من السخرية منهم أحد، وهذا من أفعال المنافقين والعياذ بالله[١٧٣].

قال الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥) رحمه الله تعالى: ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير، والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه يُضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في القول والفعل، وقد يكون بالإشارة والإيماء[١٧٤].

والواجب على المسلم إذا سمع أو رأى شيئاً من الاستهزاء بالدين، أن ينكر على قائله إنكاراً شديداً، فإن لم يستجب ويقلع عن استهزائه وسخريته، فلا يجوز لمسلم أن يجالسه، ومن جلس معه فهو مثله، كما قال الله تعالى ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ النساء (١٤٠).

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: يعني: وقد نزل عليكم أنكم إذا جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون، فأنتم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال، مثلهم في فعلهم، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم، وأنتم تسمعون آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها، كما عصوه باستهزائهم بآيات الله، فقد أتيتم من معصية الله نحو الذي أتوه منها، وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع، من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم[١٧٥].

وصور الاستهزاء بالله تعالى ورسله وآياته والصالحين من عباده كثيرة في هذا الزمن، فلينتبه المسلم لدينه وعقيدته، فالأمر خطير جداً، وسواء كان هذا على سبيل الجد أو الهزل والمزاح، فاللهم إنا نسألك العافية.

---

(١٧٣) إحياء علوم الدين: ١٣١/٣.

(١٧٤) انظر: جامع البيان، للطبري، وفتح القدير، للشوكاني، سورة التوبة، آية (٧٩).

(١٧٥) جامع البيان، سورة النساء، آية (١٤٠).

٤-فصل في بيان أن السحر كفر بالله العظيم.

السحر حقيقة، وهو من عمل اليهود، وقد جاء أن لبيد بن الأعصم اليهودي، سحر النبي ﷺ ثم شفاه الله تعالى[١٧٦].

وقد ذكر الله تعالى السحر في القرآن في معرض التحذير والذم، فقال سبحانه عن اليهود: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشيطين على ملك سليمن وما كفر سليمن ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ...﴾ البقرة (١٠٢).

قال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦) رحمه الله تعالى: والسحر وجوده حقيقة عند أهل السنة، وعليه أكثر الأمم، ولكن العمل به كفر، حُكي عن الشافعي رضي الله عنه أن قال: السحر يُخيّل ويُمرض، وقد يقتل، حتى أوجب القصاص على من قتل به، فهو من عمل الشيطان، يتلقاه الساحر منه بتعليمه إياه، فإذا تلقاه منه استعمله في غيره[١٧٧].

قال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠) رحمه الله: وفي قولهما ﴿فلا تكفر﴾ أبلغ إنذار، وأعظم تحذير، أي: هذا ذنب يكون من فعله كافراً، فلا تكفر، وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر، وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد، وبين من تعلمه ليكون ساحراً، وبين من تعلمه ليقدر على دفعه[١٧٨].

ومن السحر: سحر الصرف، والعطف:

فسحر الصرف لصرف المرأة عن زوجها، كما قال تعالى: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ البقرة (١٠٢).

وسحر العطف لجلب المحبة بين الزوجين، ليعطف أحدهما على الآخر، وكل هذا من عمل الشياطين، والعياذ بالله تعالى.

---

(١٧٦) البخاري في صحيحه (٥٧٦٣، ٦٠٦٣) ومسلم في صحيحه (٢١٨٩).

(١٧٧) معالم التنزيل، سورة البقرة، آية (١٠٢) وانظر: الأم، للشافعي: ٢٩٣/١، الحكم في الساحر والساحرة.

(١٧٨) فتح القدير، سورة البقرة، آية (١٠٢).

وقد جاء في الحديث التعبير عن سحر العطف بالتِّوَلة، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن الرقى، والتمائم، والتِّوَلة شرك)[١٧٩] .

قال الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢) رحمه الله تعالى: والتِّولة: شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر، وإنما كان ذلك من الشرك؛ لأنهم أرادوا دفع المضار، وجلب المنافع من عند غير الله[١٨٠].

وهناك ما يُعرف بالنُّشْرة، وهو ضرب من الرقية والعلاج، يُعالج به من كان يُظن أن به مساً من الجن، سميت نُشرة؛ لأنه يُنشر بها عنه ما خامره من الداء، أي: يُكشف ويُزال[١٨١].

والمراد هنا حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

النوع الأول: حل السحر عن المسحور بالأدعية والرقى بالقرآن والسنة، وهذا لا حرج فيه.

والنوع الثاني: حل السحر عن المسحور بالسحر، وهذه مسألة ينبغي التفطن لها، وقد سمعنا من يجيز ذلك، ولكن عند التدبر والتأمل والنظر في مآل هذا القول نجد أنه مخالف للصواب، وأن الصواب القول بأن هذا الفعل من المحرمات الموبقات، وذلك لأمور:

أولاً: هذا العمل فيه دعوة للذهاب لهؤلاء السحرة والدجالين والكهنة، واستعطافهم لحل السحر، ومن ثم تصديقهم فيما يقولون، وسيأتي الكلام عن تصديق الكهان، وأنه كفر بالله تعالى.

ثانياً: فيه دعوة مبطنة لتعلم السحر؛ لأجل نفع المسحورين، وهذا يتعارض مع ما جاء في بيان أن السحر كفر بالله تعالى.

ثالثاً: فيه دعوة للمحافظة على السحرة وإكرامهم؛ لأنهم ينفعون الناس ويسعون في شفائهم، وهذا يتعارض مع ما جاء أن الساحر لا بد أن يُكفّ شره عن الناس.

---

(١٧٩) أبو داود في سننه (٣٨٨٣) وابن ماجه في سننه (٣٥٣٠) وهو في صحيح ابن حبان (٦٠٩٠) وحسنه الوادعي في: الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٨٤٠).

(١٨٠) فتح الباري: ١٩٦/١٠.

(١٨١) النهاية، لابن الأثير: ٥٥٤/٥.

رابعاً: يقول الله تعالى عن السحرة: ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ البقرة (١٠٢).

قال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠) رحمه الله: فيه تصريح بأن السحر لا يعود على صاحبه بفائدة، ولا يجلب إليه منفعة، بل هو ضرر محض، وخسران بحت.

وهل بعد هذا يمكن لعاقل أن يَظن أن الساحر قد ينفع أحداً.

خامساً: جاء في الحديث عن النبي ﷺ النهي عن التداوي بالحرام، فقد قال طارق بن سويد الجعفي للنبي ﷺ في شأن الخمر: إنما أصنعها للدواء، فقال ﷺ: (إنه ليس بدواء، ولكنه داء)[١٨٢] فهذا في الخمر، فكيف بالسحر الذي هو كفر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواءً، فتداووا، ولا تداووا بحرام)[١٨٣] .

وجاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرّم عليكم)[١٨٤] .

والعلماء تكلموا عن التداوي بالمحرمات والنجاسات، وفصلوا في هذا، وإنما أوردت هذه الأحاديث لأبين كيف جاء التحذير من التداوي بالحرام، فكيف بالتداوي بالكفر بالله العظيم.

ونحن إذا تأملنا القرآن الكريم رأيناه يغلظ في شأن السحر، كما تقدم، ورأينا أن بعض الصحابة يُفتي بقتل الساحر، فكيف بعد ذلك يقال: التمسوا من السحرة شفاء للمسحورين، بل إن العلاج الحقيقي لهذا البلاء، هو قتل السحرة، وإن لم يُقتلوا على رأي من لا يرى قتلهم، فيودعون في غيابات السجون، حتى يتبين حالهم، أو يلقوا ربهم.

---

(١٨٢) مسلم في صحيحه (١٩٤٨).

(١٨٣) أبو داود في سننه (٣٨٧٤) وبعضهم قوى هذا الحديث.

(١٨٤) البخاري في صحيحه، معلقاً مجزوماً، قبل الحديث (٥٦١٤) ووصله الطبراني في المعجم الكبير (٩٧١٧) والحاكم في المستدرك (٧٥٠٩).

ومن عرف السحر وطرائقه، وأحوال السحرة وأخبارهم التي ذكرها بعض من تاب منهم، علم خطورة السحر وخطورة إتيان السحرة، وخطورة القول بجواز حل السحر بالسحر على المسلمين، والله المستعان[١٨٥].

---

(١٨٥) انظر: معالم السنن، للخطابي: ٤/٢٢٠، أضواء البيان، للشنقيطي: ٤/٥٧.

٥-فصل في أن الغلو في المخلوق، سبب من أسباب الوقوع في الشرك.

قبل أن نتكلم على المقصود من هذا الفصل، يجب أن يؤمن كل آدمي بأن جميع من خلق الله من ناطق وجامد، إنما هو مربوب لله تعالى، مدبر بأمره سبحانه وتعالى، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأنه مفتقر إلى الله تعالى في كل لحظة من لحظات حياته، وأن كل نفس بما كسبت رهينة، وأن الخلق يوم القيامة لا يملك بعضهم لبعض شيئاً، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، كما قال الله تعالى في وصف بعض مشاهد القيامة:

﴿وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ الإفطار (١٧-١٩).

وأما المراد بالغلو: فهو مجاوزة الحدّ، فمن جاوز الحد في شيء فغد غلا فيه[١٨٦].

ونستطيع أن نقول: إن من تعبد الله بعبادة لم يرد بها الكتاب والسنة، أو زاد على المشروع مستحسناً، أو كلف نفسه ما يشق عليه متعبداً، فقد حصل له نصيب من الغلو.

وقد وقعت الأمم قبلنا في هذا البلاء، فغلت اليهود في عزير، حتى جعلته ابناً لله تعالى، وغلت النصارى في المسيح عيسى بن مريم حتى جعلته ابناً لله أيضاً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ التوبة (٣٠).

وقد أكرم الله هذه الأمة التي بعث إليها محمداً ﷺ بأن جعلها أمة وسطاً عدولاً خياراً، ليسوا أصحاب غلو ولا جفاء، وأمرهم أن يقولوا في كل ركعة من صلاتهم ويدعوا ربهم ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ الفاتحة (٥-٦) واليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون.

وما كان الغلو في آدمي، إلا وصاحب هذا الغلو جفاء ولا بد، فمن غلا في الباطل كره الحق، واليهود أُمّة غُلوّ كما هو معلوم، ومع ذلك قتلوا الأنبياء، والنصارى غلو في عيسى ﷺ ورفضوا الحق الذي جاء به محمد ﷺ والذين حادوا عن السنة وركبوا البدع التي سببها الغلو في المخلوقين، كرهوا الحق واتباع السنة، واتهموا من يدعوهم إلى السنة بالتهم الباطلة، والشيعة الباطنية أظهروا تعظيم آل البيت وغلو فيهم،

---

(١٨٦) انظر: فتح الباري: ٢٨٧/١٣.

وكفروا خيار خلق الله بعد الأنبياء صحابة رسول الله ﷺ وعبّاد القبور غلو في المقبورين وطلبوا منهم ما يُطلب من الله تعالى، وقصروا في سؤال الله تعالى والالتجاء إليه، والعاكفون على الأضرحة، لا تراهم عاكفين في المساجد، ولا ترى غالياً في شيء، إلا وتراه جافياً، ومن ترك السنة ابتلي بالبدعة، نسأل الله تعالى العافية.

ومن يتأمل في ذكر الشرك والمشركين في كتاب الله الكريم = يجد أن أصل الشرك بالله العظيم في بني آدم، إنما كان مبدؤه وسببه: الغلو في المخلوق، وسواء كان هذا المخلوق آدمياً، أو غيره.

قال الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: وأصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور، وأصحابها، وقد أمر النبي ﷺ بتسوية القبور، وطمسِها[١٨٧].

وقد قص الله تعالى علينا في كتابه الكريم خبر قوم غلو في الصالحين من قومهم حتى عبدوهم من دون الله تعالى، فبعث الله تعالى إليهم نوحاً ﷺ يدعوهم إلى عبادته وتوحيده، وترك عبادة غير الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ نوح (٢٣-٢٤).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ، أما وَدّ كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سُواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت[١٨٨].

فانظر كيف استدرجهم الشيطان ليفعلوا أفعالاً يظنون أن فيها خيراً لهم، بصنعة تماثيل وصور لأولئك الصالحين، تُنصب في المجالس التي كانوا يجلسون فيها، ليتذكروهم، ويتذكروا ما كانوا عليه من العبادة، فينشطوا بتلك الذكريات على الطاعة والعبادة، ومضى حين من الدهر، فجاء الشيطان إلى ذرياتهم، ووسوس إليهم

---

(١٨٧) البداية والنهاية: ١٧١/١٤.

(١٨٨) البخاري في صحيحه (٤٩٢٠).

أن آباءكم كانوا يعبدون هؤلاء، وبهم يُسقون المطر، فأغراهم بعبادتهم فعبدوهم، وذلك حينما ذهب العلم وانتشر الجهل، فعُبدت تلك الصور، والسبب كما ترى هو الغلو في أولئك الصالحين بتصويرهم ونصب صورهم في المجالس[١٨٩] ولذا كان هذا هو السبب الحقيقي لتحريم التماثيل في الإسلام، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة، فإن صنعة تماثيل الآدميين نوع من أنواع الغلو المذموم.

وقال تعالى ينكر على المشركين عبادتهم لبعض الأصنام: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ النجم (١٩-٢٠).

قال المؤرخ والنسابة المشهور، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت٢٠٤) رحمه الله تعالى: واللات بالطائف، وهي أحدث من مناة، وكانت صخرة مربعة، وكان يهودي يلتّ عندها السويق[١٩٠] .

وقال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح ﴿اللاتّ﴾ بتشديد التاء، وجعلوه صفة للوثن الذي عبدوه، وقالوا: كان رجلاً يلت السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.[١٩١].

وقال الإمام أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت٥٤٢) رحمه الله تعالى: وقالوا: كان هذا الصنم حجراً، وكان عنده رجل من بِهزٍ يلت سويق الحاج على ذلك الحجر، ويخدم الأصنام، فلما مات عبدوا الحجر الذي كان عنده؛ إجلالاً لذلك الرجل، وسموه باسمه[١٩٢].

فتأمل سبب عبادة اللات من دون الله، وأن ذلك إنما هو بسبب الغلو في ذلك الرجل الصالح، على ما جاء في روايات متعددة.

ويذكر المؤرخ والنسابة المشهور، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت٢٠٤) رحمه الله تعالى خبراً عجيباً في بداية عبادة الأصنام، وأنه ناشىء عن تعظيم حجارة الحرم، فيقول: حدثنا أبي، وغيره: أن إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما، لما سكن مكة، وولد له بها أولاد كثير، حتى ملأوا مكة، ونَفوا من كان بها من

---

(١٨٩) انظر: جامع البيان، للطبري، سورة نوح، آية (٢٣-٢٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، سورة نوح، آية (٢٣-٢٤).

(١٩٠) الأصنام، لابن الكلبي: ص:١٦.

(١٩١) جامع البيان، سورة النجم، آية (١٩).

(١٩٢) المحرر الوجيز، سورة النجم، آية (١٩).

العماليق، ضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضاً، فتفسحوا في البلاد، والتماس المعاش، وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة؛ أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن، إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم، وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه، وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمناً منهم بها، وصبابة بالحرم، وحباً له، وهم بَعدُ يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم(١٩٣).

ويقول الإمام محمد بن إسحاق بن يسار المدني (ت١٥١) رحمه الله تعالى: وقد كانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، ويُهدى لها كما يُهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها(١٩٤).

فانظر كيف ساقهم تعظيم المخلوقات والغلو في ذلك، إلى أن أصبحت تلك المخلوقات تعبد من دون الله جل وعلا.

والغلو شر كله، ولهذا حذر الله تعالى أهل الكتاب منه، فقال سبحانه: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ النساء (١٧١).

فهذا خطاب للقوم الذين غلو في نبي الله عيسى ﷺ وتجاوزا الحدّ في حقه، حتى رفعوه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يكون إلا لله تعالى وتقدس، وذلك أنهم قالوا هو الله، وقالوا مرة: هو ابن الله، وقالوا مرة: ثالث ثلاثة، ولا زال النصارى إلى يومنا هذا يعتقدون في هذا النبي العظيم هذه العقائد الباطلة.

وحذر من ذلك النبي الكريم ﷺ فقال: (إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)(١٩٥) .

(١٩٣) الأصنام، لابن الكلبي: ص:٦.

(١٩٤) السيرة النبوية، لابن هشام: ٥٤/١، وعن ابن إسحاق أورده عنه ابن كثير في تفسيره، سورة النجم، آية (١٩) وفي البداية والنهاية: ٢٤٣/٢.

(١٩٥) النسائي في سننه (٣٠٥٧) وابن ماجه في سننه (٣٠٢٩) وصححه ابن عبد البر في التمهيد: ٤٢٨/٢٤.

والمعنى: احذروا الزيادة في الدين، ولذا قال النبي ﷺ هذا الحديث حينما أمر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن يلتقط له حصى لرمي الجمار، فالتقط له حصيات، ثم وضعن في يده، وقال: (بأمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو ...الحديث) فبين لنا هذا الحديث أن كل زيادة في الدين لم ترد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسول الله ﷺ إنما هي من الغلو.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله)[١٩٦].

قال الإمام أبو الحسن علي بن خلف بن بطال (ت٤٤٩) رحمه الله تعالى: أي: لا تصفوني بما ليس لي من الصفات، تلتمسون بذلك مدحي، كما وصفت النصارى عيسى بما لم يكن فيه، فنسبوه إلى أنه ابن الله، فكفروا بذلك وضلوا ... وفي هذا من الفقه: أن من رفع مخلوقاً فوق حده، وتجاوز به مقداره بما ليس فيه، فمعتد آثم؛ لأن ذلك لو جاز في أحد لكان أولى الخلق بذلك رسول الله ﷺ ولكن الواجب أن يُقصَر كل أحد على ما أعطاه الله من منزلته، ولا يُعدّى به إلى غيرها[١٩٧].

وصور الغلو في الأمم كثيرة جداً يصعب على الإنسان حصرها، منها ما يكون في الاعتقاد، ومنها ما يكون في العمل، وهما بابا الشرك والبدعة، وكلاهما مذموم، ومن عافاه الله منهما فقد فاز، وأنا أشير هنا إشارات موجزة إلى بعض صور الغلو، وهي:

-بناء المساجد على القبور.

وأحاديث النهي عن اتخاذ القبور مساجد، بلغت حد التواتر، كما ذكر ذلك جمع من أهل العلم، ومنها:[١٩٨].

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي لم يقم منه: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنه خشي، أو خُشي أن يُتخذ مسجداً[١٩٩].

---

(١٩٦) البخاري في صحيحه (٣٤٤٥).

(١٩٧) شرح صحيح البخاري: ٢٥٤/٩.

(١٩٨) انظر: المحلى، لابن حزم: ٣٠/٤، حقيقة السنة والبدعة، للسيوطي: ص: ١١٣، نظم المتناثر من الحديث المتواتر، للكتاني: ص: ١٠٣.

(١٩٩) البخاري في صحيحه (١٢٦٥، ١٣٩٠) ومسلم في صحيحه (٥٢٩).

وعن عائشة رضي الله عنها أيضاً، أن بعض نساء النبي ﷺ ذكرن له كنيسة رأينها بأرض الحبشة، فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، فرفع رأسه، فقال: (أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله)[٢٠٠] .

وهذه الأحاديث ظاهرة في تحريم بناء المساجد على القبور، وهذه البلية موجودة في كثير من مساجد المسلمين، وربما كان الضريح في قبلة المصلين، وربما في وسط المسجد، وقد حصل بسبب هذا الفعل المنهي عنه فتنة لكثير من الجهال بهذا القبر، وربما اتخذه بعضهم مطافاً بعد الفراغ من الصلاة.

وقد يُشبّه بعض القبوريين المعاندين بوجود قبر النبي ﷺ داخل المسجد النبوي. والجواب عن ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم دفنوا النبي ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها، ولم تكن الحجرة يومئذ داخل المسجد، ولما تم توسعة المسجد في آخر عصر الصحابة في آخر القرن الأول، دخلت الحجرة في المسجد، وتم بناء جدران متعددة على القبر، وجعلت الحجرة مثلثة الشكل محددة، حتى لا يتأتى لأحد أن يُصلي إلى جهة القبر مع استقبال القبلة[٢٠١].

ولا يجادل في هذا إلا من قل نصيبه من اتباع الحق، ولو كان ممن يريد الحق؛ لما عارض الأحاديث المتواترة بأفعال الخلق وتصرفاتهم.

-ومن ذلك أيضاً دفن بعض الموتى داخل المسجد، وبعض الجهلة ربما بنى مسجداً، وأوصى إذا مات أن يدفن داخل المسجد، وهذه الوصية لا يجوز العمل بها.

وقد قال العلماء: إذا كان القبر أولاً، وجب هدم المسجد، وإذا كان المسجد أولاً وجب نبش القبر، ونقله إلى مقابر المسلمين، والله المستعان.

-رفع القبور عن الأرض بالبناء عليها، ووضع القباب عليها، وتزيينها، وإيقاد السرج عليها.

---

(٢٠٠) البخاري في صحيحه (١٣٤١) ومسلم في صحيحه (٥٢٨).

(٢٠١) انظر: فتح الباري: ٢٣٨/٣.

فقد جاء عن أبي الهياج الأسدي، قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته [٢٠٢].

قال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦) رحمه الله تعالى: فيه أن السنة: أن القبر لا يُرفع على الأرض رفعاً كثيراً، ولا يُسنّم، بل يُرفع نحو شبر ويُسطح، وهذا مذهب الشافعي ومن وافقه، ونقل القاضي عياض عن أكثر العلماء، أن الأفضل عندهم تسنيمها، وهو مذهب مالك[٢٠٣].

وقال العلامة أبو الحسن علي بن سلطان الهروي المكي، المعروف بالملا علي القاري (ت١٠١٤) رحمه الله تعالى: قال العلماء: يستحب أن يُرفع القبر قدر شبر، ويُكره فوق ذلك، ويستحب الهدم، وفي قدره خلاف، قيل إلى الأرض تغليظاً، وهذا أقرب إلى اللفظ، أي لفظ الحديث من التسوية، وقال ابن الهمام: هذا الحديث محمول على ما كانوا يفعلونه من تعلية القبور بالبناء العالي، وليس مرادنا بتسنيم القبر، بل بقدر ما يبدو من الأرض ويتميز عنها[٢٠٤].

وعن ثمامة بن شُفي، قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسُوّي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[٢٠٥].

وللأسف فإن قبور كثير من المسلمين في كثير من بلاد المسلمين مخالفة لهذا الهدي النبوي، وذلك محاكاة منهم للروافض والخرافيين من الصوفية، فإن رفع القبور والبناء عليها دسيسة دستها الطوائف الباطنية من الشيعة، حينما حكموا بعض بلاد المسلمين بغية تعليق المسلمين بالقبور وأهلها من دون الله تعالى، فإن دين الروافض قائم في أصله على الغلو والعياذ بالله تعالى.

-ومن ذلك الصلاة على القبور، وإليها.

---

(٢٠٢) مسلم في صحيحه (٩٦٩).

(٢٠٣) شرح مسلم: ٣٦/٧.

(٢٠٤) مرقاة المفاتيح: ١٢١٦/٣.

(٢٠٥) مسلم في صحيحه (٩٦٨).

عن أبي مرثد الغنوي ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها)[٢٠٦] .

ومعنى: ولا تصلوا إليها، أي: لا تستقبلوها في صلاتكم[٢٠٧] والعلة ظاهرة جداً، وهي الافتتان بالقبر، ولو بعد حين من الزمان، وفي هذا حسم لمادة التعلق بغير الله تعالى.

قال الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١) رحمه الله تعالى: اعلم أن من الفقهاء من اعتقد أن سبب الكراهة في الصلاة في المقبرة ليس إلا كونها مظنة النجاسة. ونجاسة الأرض مانع من الصلاة عليها، سواء كانت مقبرة أو لم تكن، وليس ذلك كل المقصود بالنهي، وإنما المقصود الأكبر بالنهي إنما هو مظنة اتخاذها أوثاناً، كما ورد عن الإمام الشافعي ﷺ أنه قال: وأكره أن يُعظّم مخلوق حتى يُجعل قبره مسجداً؛ مخافة الفتنة عليه من بعده من الناس[٢٠٨].

-ومن ذلك: اتخاذ القبور أعياداً، وتخصيص زيارتها زيارة سنوية في يوم معين.

فإن هذا الفعل غير مشروع، وهناك من المسلمين من يخصص يوما معيناً في السنة لزيارة قبر معين، وهذا الفعل منتشر بين الرافضة في العراق وغيرها، وقلدهم في ذلك الطوائف الغالية من المتصوفة، وإذا كان النبي ﷺ نهى أمته أن تفعل ذلك بقبره بأبي وأمي هو، فكيف بغيره.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)[٢٠٩] .

قال العلامة محمد عبد الرؤوف المناوي (ت١٠٣١) رحمه الله تعالى: أي لا تتخذوا قبري مظهر عيد، معناه: النهي عن الاجتماع لزيارته اجتماعهم للعيد، إما لدفع المشقة، أو كراهية أن يتجاوزوا حد التعظيم، وقيل: العيد ما يُعاد إليه، أي لا تجعلوا قبري عيداً تعودون إليه متى أردتم أن تصلوا علي ... ويؤخذ منه: أن اجتماع العامة في بعض أضرحة الأولياء في يوم أو شهر مخصوص من السنة، ويقولون: هذا

---

(٢٠٦) مسلم في صحيحه (٩٧٢).

(٢٠٧) انظر: تحفة الأحوذي: ١٣١/٤.

(٢٠٨) الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع: ص: ١١٦.

(٢٠٩) أبو داود في سننه (٢٠٤٢).

مولد الشيخ، ويأكلون ويشربون، وربما يرقصون فيه، منهي عنه شرعاً، وعلى ولي الشرع ردعهم على ذلك، وإنكاره عليهم وإبطاله[٢١٠].

-ومن ذلك: شد الرحال والسفر لزيارة القبور.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: (لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ ومسجد الأقصى)[٢١١].

قال الإمام أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري (ت٦٣٠) رحمه الله تعالى: المراد: لا يقصد موضعاً من المواضع بنية العبادة، والتقرب إلى الله تعالى، إلا إلى هذه الأماكن الثلاثة، تعظيماً لشأنها وتشريفاً[٢١٢].

قلت: ومشروعية شد الرحال للمساجد الثلاثة، إنما هو والله أعلم لأجل مضاعفة أجر الصلاة الوارد فيها[٢١٣].

وقد جاء أن بصرة بن أبي بصرة الغفاري رأى أبا هريرة ﷺ راجعاً من الطور، الذي كلم الله عليه موسى، فقال له: لو لقيتك من قبل أن تأتيه، لم تأته، فقال له أبو هريرة رضي الله عنه: ولم؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تُعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد ... وذكر الحديث[٢١٤].

قال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦) رحمه الله تعالى: واختلف العلماء في شد الرحال وإعمال المطي إلى غير المساجد الثلاثة، كالذهاب إلى قبور الصالحين، وإلى المواضع الفاضلة، ونحو ذلك، فقال الشيخ أبو محمد الجويني، من أصحابنا، هو حرام، وهو الذي أشار القاضي عياض إلى اختياره[٢١٥].

قلت: ولو كان شد الرحل والسفر إلى القبور لزيارتها قربة؛ لبينه النبي ﷺ وأرشد إليه أمته، ومن ذلك السفر من أجل قبر النبي ﷺ فهو من هذا الباب، فلا يُشرع ذلك

---

(٢١٠) فيض القدير: ١٩٩/٤.

(٢١١) البخاري في صحيحه (١١٨٩) ومسلم في صحيحه (١٣٩٧).

(٢١٢) جامع الأصول: ٢٨٣/٩.

(٢١٣) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض: ٤٤٨/٤.

(٢١٤) النسائي في سننه (١٤٢٩) وقال العيني في عمدة القاري: ٢٢٥/٧: رجال إسناده ثقات.

(٢١٥) شرح مسلم: ١٠٦/٩، وانظر: نهاية المطلب في دراية المذهب: ٤٣٠/١٨، المجموع شرح المهذب: ٤٧٥/٨، البداية والنهاية: ١٤٣/١٤، فتح الباري: ٦٥/٣.

بل يُنهى عنه، قطعاً لدابر الغلو، وحب النبي ﷺ ليس بالتشهي وما تهوى الأنفس، إنما هو باتباعه، والعمل بسنته، والذب عن الدين الذي جاء به، هذه هي المحبة الحقيقية، نسأل الله تعالى أن يرزقنا إياها، وعلى المسلم إذا أراد السفر إلى المدينة أن ينوي بسفره الذهاب إلى مسجد النبي ﷺ ليحوز أجر مضاعفة الصلاة فيه، ثم إذا كان هناك، وأراد أن يذهب إلى قبر النبي ﷺ ويسلم عليه وعلى صاحبيه، فلا حرج في ذلك.

-ومن ذلك عمل التماثيل لأشخاص معينين، ونصبها في الطرقات والبيوت.

ما فيه روح لا يجوز أن يُصنع على هيئتة تمثال ومجسم، فقد ورد في ذلك التحذير الشديد من النبي الكريم ﷺ في أحاديث كثيرة، منها:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون)[٢١٦] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم)[٢١٧] .

قال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٦٧) رحمه الله تعالى: قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم، وهو من الكبائر؛ لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث، وسواء صنعه بما يمتهن، أو بغيره، فصنعته حرام بكل حال؛ لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى[٢١٨].

وجاء أن الملائكة لا تدخ بيتاً فيه شيء من هذه التماثيل والصور: فعن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب، ولا تماثيل)[٢١٩] .

والواجب طمس تلك التماثيل وتغيير صورتها، وهذا الذي أمر به علي رضي الله عنه التابعي الجليل أبا الهياج الأسدي، فعنه رضي الله عنه قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على

---

(٢١٦) البخاري في صحيحه (٥٦٠٦) ومسلم في صحيحه (٢١٠٩).

(٢١٧) البخاري في صحيحه (٥٦٠٧) ومسلم في صحيحه (٢١٠٨).

(٢١٨) شرح مسلم: ٨١/١٤.

(٢١٩) مسلم في صحيحه (٢١٠٦).

ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته [٢٢٠].

قال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٦٧) رحمه الله تعالى: فيه الأمر بتغيير صور ذوات الأرواح[٢٢١] وأجمعوا على منع ما كان له ظل، ووجوب تغييره، قال القاضي: إلا ماورد في اللعب بالبنات لصغار البنات، والرخصة في ذلك[٢٢٢].

والمعتبر في الصورة الرأس، فإذا قطع الرأس، أو طمست معالمه، زالت الحرمة، ففي حديث التمثال المشهور، وفيه أن جبريل قال للنبي ﷺ: (فمر برأس التمثال الذي بالباب فليقطع)[٢٢٣] وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الصورة الرأس، فإذا قُطع الرأس فليست بصورة[٢٢٤].

-ومن ذلك: إقامة موالد سنوية للأنبياء، وغيرهم ممن يُعتقد أنهم من الأولياء والصالحين، وقد اُبتليت هذه الأمة بهذه البدعة، وتشبهت بالنصارى الذين يقيمون احتفالات بمولد عيسى ﷺ فتراهم في بلاد الإسلام يقيمون مولداً للنبي ﷺ في شهر ربيع الأول من كل عام، ويجعلون ذلك في ليلة الثاني عشر من هذا الشهر، وهذه بدعة أحدثها الشيعة الباطنيون العبيديون لما احتلوا مصر[٢٢٥] ولم تكن تُعرف قبلهم، فقلدهم المسلمون في ذلك وإلى يوم الناس هذا، وقد حذر المحققون من إقامة هذا المولد، وبينوا أنه بدعة محدثة في الإسلام سببها الغلو.

قال الإمام أبو حفص تاج الدين عمر بن علي المالكي، المشهور بالفاكهاني (ت٧٣٤) رحمه الله تعالى: لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب ولا سنة، ولا يُنقل عمله عن أحد من علماء الأمة، الذين هم القدوة في الدين، المتمسكون بآثار المتقدمين، بل هو بدعة أحدثها البطالون، وشهوة نفس اغتنى بها الأكّالون[٢٢٦].

---

(٢٢٠) مسلم في صحيحه (٩٦٩).

(٢٢١) شرح مسلم: ٣٢/٧.

(٢٢٢) شرح مسلم: ٨٢/١٤، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض: ٣٢١/٦.

(٢٢٣) أبو داود في سننه (٤١٥٨) والترمذي في سننه (٢٨٠٦).

(٢٢٤) البيهقي في سننه (١٤٥٨٠) وانظر: شرح السنة، للبغوي: ١٣٣/١٢.

(٢٢٥) انظر: صبح الأعشى، للقلقشندي: ٤٩٨/٣، المواعظ والاعتبار، للمقريزي: ٤٩٠/١، أحسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدعة من الأحكام، لمحمد بخيت المطيعي: ص:٤٤، الإبداع في مضار الابتداع، لعلي محفوظ: ص:١٢٦.

(٢٢٦) المورد في أحكام المولد: ص: ٨، المطبوع مع رسائل في حكم الاحتفال بالمولد النبوي، لمجموعة من العلماء.

وقال الإمام أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت٥٦٥) رحمه الله تعالى: قد صرح جماعة من العلماء بإنكار الموالد، والتحذير منها، عملاً بالأدلة ... وخالف بعض المتأخرين فأجازها إذا لم تشتمل على شيء من المنكرات، كالغلو في رسول الله ﷺ وكاختلاط النساء بالرجال، واستعمال الآلات والملاهي، وغير ذلك مما يُنكره الشرع المطهر، وظنوا أنها من البدع الحسنة، والقاعدة الشرعية: رد ما تنازع فيه الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ ... وقد رددنا هذه المسألة إلى كتاب الله سبحانه وتعالى ... وسنة الرسول ﷺ فلم نجد فيها أنه فعله، ولا أمر به، ولا فعله أصحابه رضي الله عنهم، فعلمنا بذلك أنه ليس من الدين، بل هو من البدع المحدثة، ومن التشبه بأهل الكتاب من اليهود والنصارى في أعيادهم[٢٢٧].

وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠) رحمه الله تعالى: لم أجد إلى الآن دليلاً يدل على ثبوته من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس، ولا استدلال، بل أجمع المسلمون أنه لم يوجد في عصر خير القرون، ولا الذين يلونهم[٢٢٨] .

فعلى من أراد اتباع السنة، وخاف على نفسه من ارتكاب البدعة، فليحذر هذه البدعة، وليحذر الحضور مع أهلها وتكثير سواد أهل البدع، وليجتهد في متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله، وليحرص على التخلق بأخلاقه، والدعوة إلى هديه وطريقته، ولا يغتر بما يفعله الجاهلون، والله المستعان.

---

(٢٢٧) الباعث على إنكار البدع والحوادث: ص: ١٠٩. والمؤلفات، والكتابات في إنكار المولد وبيان أنه من البدع المحدثة كثيرة جداً.

(٢٢٨) رسالة في حكم المولد، ضمن مجموع الفتح الرباني، للشوكاني: ١٠٨٧/٢، وانظر: المدخل، لابن الحاج: ٢/٢، فتاوى الشاطبي: ص:٢٠٣، المعيار المعرب والجامع المغرب، للونشريسي: ص:٩٩، تشنيف الآذان، لأبي زرعة: ص:١٣٦، مجلة المنار، لمحمد رشيد رضا: ١١١/١٧.

٦-فصل في بيان أن من عمل بعمل الآخرة لأجل الدنيا فقد وقع في الشرك بالله تعالى.

المراد بهذا: أن على المسلم الصادق أن يريد بأعماله وطاعاته وجه الله تبارك وتعالى، وأن يحذر من إرادة الدنيا بهذه الأعمال، فيخسر الدنيا والآخرة.

وهذا ما يُعرف بالإخلاص لله تعالى في فعل الطاعات والقربات، ولهذا لا يختلف العلماء في أن العبادة المقبولة عند الله تعالى هي التي قام بها العبد وفعلها يبتغي بذلك وجه الله تعالى.

ولهذا نجد الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ الكهف (١١٠).

قال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ ما كان موافقاً لشرع الله ﴿ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وهو الذي يُراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ[٢٢٩] .

وقال العلامة برهان الدين بن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥) رحمه الله تعالى: ﴿عملاً صالحاً﴾ وهو ما يأمره به من أصول الدين وفروعه، من التوحيد، وغيره من أعمال القلب والبدن والمال؛ ليسلم من عذابه ﴿ولا يشرك﴾ أي: وليكن ذلك العمل مبنياً على الأساس، وهو: أن لا يُشرك، ولو بالرياء[٢٣٠] .

وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠) رحمه الله تعالى: ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ وهو ما دل الشرع على أنه عمل خير يُثاب عليه فاعله ﴿ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً﴾ من خلقه سواء كان صالحاً أو طالحاً، حيواناً أو جمادا[٢٣١] .

وقال العلامة جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي (ت١٣٣٢) رحمه الله تعالى: ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ أي: في نفسه، لائقاً بذلك المرجو، وهو ما كان موافقاً لشرع الله ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي: من خلقه، إشراكاً جلياً، كما فعله الذين كفروا

(٢٢٩) تفسير ابن كثير: سورة الكهف، آية (١١٠).

(٢٣٠) نظم الدرر: سورة الكهف، آية (١١٠).

(٢٣١) فتح القدير: سورة الكهف، آية (١١٠).

بآيات ربهم ولقائه، ولا إشراكاً خفياً، كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجراً من المدح، وتحصيل المال والجاه[٢٣٢].

والمتأمل في أعمال العباد يجدها ثلاثة أنواع:

الأول: ما كان لله تبارك وتعالى خالصاً، وللسنة موافقاً.

فهذا هو العمل الذي يحبه الله ويرضاه، والله تعالى إنما يحب من الأعمال، ما شرعها لعباده وكانت خالصة.

والثاني: ما فُقد منه هذان الوصفان، أو أحدهما.

روى المفسر أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي (ت٤٢٧) رحمه الله تعالى، بسنده إلى الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى وهو يتكلم عن قول الله تعالى ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال: أخلصه وأصوبه ... إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنة[٢٣٣].

والثالث: ما عمله العبد لله تعالى ولغيره، فلا يكون لله محضاً، ولا للناس محضاً. وللعلماء في هذا النوع كلام طويل من جهة الثواب والقبول، ومن جهة الإجزاء والبطلان، والموفق من سلم من هذا النوع، ففي الحديث المشهور الذي رواه أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه)[٢٣٤] .

ومن عمل عملاً يريد به الدنيا، فإن الله يعطي من يشاء من هؤلاء ما أراده في الدنيا، فإذا أفضى إلى الآخرة لم يجد لعمله ذاك أثراً.

ومن الآيات التي تبين هذا المعنى، قول الله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ هود (١٥).

---

(٢٣٢) محاسن لتأويل، سورة الكهف، آية (١١٠).

(٢٣٣) الكشف والبيان: سورة تبارك، آية (٢) وانظر: معالم التنزيل للبغوي، سورة الملك، آية (٢) .

(٢٣٤) مسلم في صحيحه (٢٩٨٥).

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: يقول تعالى ذكره: من كان يُريد بعمله الحياة الدنيا، وإياها وزينتها يطلبُ، نوفّ إليهم أجور أعمالهم فيها وثوابها[٢٣٥] .

قال قتادة رحمه الله تعالى: من كانت الدنيا همّه وطِلبته ونيته = جازاه الله بحسانته في الدنيا، ثم يُفضي إلى الآخرة، وليس له حسنة يُعطى بها جزاء[٢٣٦].

وعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن اول الناس يُقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأُتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت؛ ليقال جريء، فقد قِيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل تعلّم العلم، وعلّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلّمت العلم؛ ليقال عالم، وقرأت القرآن ليُقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل وسّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت؛ ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه، ثم أُلقي في النار)[٢٣٧] .

ولا حول ولا قوة لنا إلا بالله، فاللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى: أن ترزقنا الإخلاص لك في كل قول نقوله، وكل عمل نعمله، كما نسألك جل وعلا أن تجيرنا من الرياء والنفاق وسوء الأخلاق.

وإنما قلت: يعطي من يشاء، لقول الله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ الإسراء (١٨).

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: يقول: يُعجل الله له في الدنيا ما يشاء من بسط الدنيا عليه، أو تقتيرها، لمن أراد أن يفعل الله ذلك به، أو إهلاكه بما يشاء من عقوباته[٢٣٨].

---

(٢٣٥) جامع البيان: سورة هود، آية (١٥).

(٢٣٦) جامع البيان: سورة هود، آية (١٥).

(٢٣٧) مسلم في صحيحه (١٩٠٥).

(٢٣٨) جامع البيان، سورة الإسراء، آية (١٨).

وإرادة الإنسان بعمله الدنيا، إما أن يريد العامل دنيا يحصلها من مال ورئاسة ووظيفة وعرض زائل ونحو ذلك.

وإما أن يريد الشهرة والجاه، وغير ذلك من الأمور المعنوية، والرياء داخل في ذلك.

وكلا هذين يشتركان في كونهما من إرادة الإنسان بعمله الدنيا، نسأل الله تعالى العفو والعافية، وهما من محبطات العمل ومبطلاته، فقد جاء في حديث أبي موسى الأشعري ﵁ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يُقاتل حمية، ويُقاتل شجاعة، ويُقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[٢٣٩] .

وفي رواية: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه[٢٤٠].

ففي هذا الحديث دليل ظاهر على: أن من قاتل لغير إعلاء كلمة الله تعالى، وإنما قاتل لأي أمر دنيوي، فهذا وإن كان قد خرج مع المجاهدين، وقاتل معهم المشركين، فقتاله هذا ليس في سبيل الله تعالى، وليس له أجر المجاهدين، وإن كان قد قُتل بأيدي المشركين، لفساد نيته، نسأل الله تعالى العافية[٢٤١].

فيتعين على كل من يرجو لقاء ربه والدخول في جنته: أن يجتهد غاية الاجتهاد في إخلاص نيته لله تعالى في كل أقواله وأفعاله، وأن لا يلتفت بعمله لمخلوق كائنا من كان.

---

(٢٣٩) البخاري في صحيحه (٧٠٢٠) وانظر منه: (١٢٣) ومسلم في صحيحه (١٩٠٤).

(٢٤٠) البخاري في صحيحه (٢٦٥٥).

(٢٤١) انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد: ٧٠٣/٢.

٧-فصل في أن الذبح لغير الله تبارك وتعالى على وجه التقرب شرك بالله العظيم.

الذبح معروف، والأصل أن المسلم يذبح لله وعلى اسم الله تعالى، وإنما كان الذبح عبادة لله تعالى وقربة، لأن الذبح على وجه القربة، فيه تعظيم للمذبوح له، وذلك لا يكون إلا لله تعالى.

ومن هنا فمن ذبح لغير الله تعالى متقرباً بهذا الفعل له = فقد أشرك بالله تعالى، كمن يذبح لصنم، أو لقبر، أو لجانٍّ، أو لولي صالح، أو لغير ذلك من المخلوقين، فإن التقرب والتعبد لا يكون إلا لله تعالى، وقد لعن الله تعالى فاعل ذلك.

فعن علي بن أبي طالب ﵁ أنه سُئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال: ما خصنا رسول الله ﷺ بشيء لم يَعمّ به الناس كافة، إلا ما كان في قراب سيفي هذا، فأخرج صحيفة مكتوب فيها: لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من سرق منار الأرض، ولعن الله من لعن والده، ولعن الله من آوى محدثاً[٢٤٢].

وفي شريعتنا ثلاث ذبائح يُتقرب بذبحها إلى الله تعالى، وهي: الهدايا التي تهدى إلى بيت الله الحرام بأنواعها، والأضاحي، التي يذبحها الناس يوم الأضحى، والعقائق التي تذبح عن المولود يوم سابعه، وأدلة هذه الذبائح معروفة معلومة، ويدخل في ذلك الذبائح المتعلقة بأحكام الحج والعمرة والإحرام.

والأصل أن كل ذبيحة ذبحها المسلم إنما يذبحها على اسم الله تعالى ناوياً بها القربة لله، خاصة إذا كانت من الذبائح المشروعة كولائم الزواج، وغير ذلك، وحتى لو أراد المسلم أن يتصدق بلحمها، أو قصد إكرام ضيف، ونحو ذلك.

إنما الممنوع شرعاً والملعون فاعله كما تقدم: أن يذبح ذبيحة متقرباً بذبحها لمخلوق، كمن يذبح للجن والشياطين، للتخلص من شرورهم كما يفعل بعض الجهال، وكما يفعل بعضهم من الذبح لبعض الموتى ممن يقال عنهم أولياء ليشفوا له مريضاً أو ليقضوا له حاجة، أو لغير ذلك مما ابتدعه المبطلون، في كثير من بلاد المسلمين.

قال الله تعالى ﴿قل إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له﴾ الأنعام (١٦٢-١٦٣).

---

(٢٤٢) مسلم في صحيحه (١٩٧٨).

قال مجاهد: النُّسك: الذبائح في الحج والعمرة[٢٤٣].

يقول الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله، ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾ الكوثر (٢) أي أخلص له صلاتك، وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام، ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم، والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى[٢٤٤].

والجمهور على أن المراد بقوله تعالى ﴿وانحر﴾ الذبح يوم النحر[٢٤٥].

وقال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦) رحمه الله تعالى: قال الرافعي: واعلم أن الذبح للمعبود، وباسمه، نازل منزلة السجود، وكل واحد منهما من أنواع التعظيم، والعبادة المخصوصة بالله تعالى، الذي هو المستحق للعبادة، فمن ذبح لغيره من حيوان أو جماد كالصنم على وجه التعظيم والعبادة لم تحل ذبيحته، وكان فعله كفراً، كمن يسجد لغير الله تعالى سجدة عبادة، فكذا لو ذبح له، أو لغيره على هذا الوجه[٢٤٦] .

---

(٢٤٣) جامع البيان، سورة الأنعام، آية (١٦٢).

(٢٤٤) تفسير ابن كثير، سورة الأنعام، آية (١٦٢-١٦٣).

(٢٤٥) زاد المسير، سورة الكوثر، آية (٢).

(٢٤٦) المجمع شرح المهذب: ٣٨٥/٨.

٨-فصل في أن من نذر عبادة من العبادات لغير الله تعالى، فقد أشرك بالله سبحانه.

النذر في لسان العرب: بمعنى الإيجاب، من قولك: نذرت على نفسي كذا: أي أوجبته على نفسي[٢٤٧] .

والمراد به في عرف الشرع: إلزام العبد نفسه فعل شيء أو تركه، على وجه التقرب لله تعالى لم يكن واجباً عليه[٢٤٨] .

والأصل عند طائفة من السلف أن النذر غير محبوب، من أجل نصوص وردت في النهي عنه، منها:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه: (نهى عن النذر، وقال: إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل)[٢٤٩]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تنذروا؛ فإن النذر لا يُغني من القدر شيئاً، وإنما يُستخرج به من البخيل)[٢٥٠] .

فدل هذان الحديثان على أن المسلم لا ينبغي له أن يُلزم نفسه بشيء لم يلزمه الله تعالى به، فإن ألزم العبد نفسه بفعل طاعة كمن نذر أن يصلي أو يصوم، لزمه أن يوفي بنذره، أما إذا ألزم نفسه بفعل معصية بأن نذر أن يفعل فعلاً محرماً، فإنه لا يجوز له أن يفي بهذا النذر، لما روته عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال:(من نذر أن يُطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه)[٢٥١] .

وقد مدح الله المؤمنين الأبرار بأنهم يوفون بالنذر، فقال سبحانه: ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾ الإنسان (٧).

---

(٢٤٧) لسان العرب: ٢/٢٠٠، تاج العروس: ١٤/١٩٧.

(٢٤٨) انظر: الاستذكار، لابن عبد البر: ١٥/٢٧، أضواء البيان، للشنقيطي، سورة الحج، آية (٢٩).

(٢٤٩) البخاري في صحيحه (٦٦٠٨) ومسلم في صحيحه (١٦٣٩).

(٢٥٠) مسلم في صحيحه (١٦٤٠).

(٢٥١) البخاري في صحيحه (٦٦٩٦).

قال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر[٢٥٢].

وإذا تقرر أن النذر في أصله عبادة من العبادات كما تقدم، وذلك أن العبد يُلزم نفسه طاعة من الطاعات لله تعالى، فيقال: لا يجوز للعبد أن ينذر لغير الله تعالى كمن ينذر ذبيحة، أو غيرها مما لا يكون إلا لله، لحجر أو شجر أو قبر أو جانّ، أو لمخلوق كائناً من كان، معتقداً في المنذور له أنه يضر وينفع، ويُعطي ويمنع، أو أنه يجلب الخير، ويدفع الشر، ونحو ذلك من الاعتقادات التي لا تجوز إلا في الله تبارك وتعالى، فلا يشك عاقل أن هذا الفعل من الشرك بالله تعالى.

ومن تأمل القرآن علم أن هذا النذر يشبه ما جعله المشركون لآلهتهم، كما في قوله تعالى: ﴿ويجعلون لما يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾ النحل (٥٦).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ الأنعام (١٣٦).

واعتقاد هؤلاء في المنذور له، أعظم من اعتقاد أولئك في المجعول له، لأنهم يعتقدون في المنذور له: أنه يضر وينفع ويعطي ويمنع، بينما المشركون الأولون يعتقدون فيما يعبدون أنهم وسائط ووسائل تقربهم إلى الله زلفى[٢٥٣].

---

(٢٥٢) تفسير ابن كثير، سورة الإنسان، آية (٧).

(٢٥٣) انظر في معنى الآيتين المذكورتين هنا: تفسير ابن كثير، سورة النحل (٥٦) وسورة الأنعام (١٣٦).

٩-فصل في أن التمائم والرقى الشركية، من الذنوب العظيمة، وقد يقع العبد بسببها في الشرك بالله تعالى.

التمائم: جمع تميمة، والتميمة هي: كل ما يُعلق على المرضى، أو الأطفال، أو البهائم، أو غيرها من تعاويذ، لدفع البلاء قبل وقوعه، أو رفعه بعد وقوعه[٢٥٤].

قال الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت٥٩٧) رحمه الله تعالى: إن التمائم من الشرك، وهي: خرزات كانت العرب تعلقها على الصبيان يتقون بها العين بزعمهم، فلما أرادوا دفع المقادير بذلك كان شركاً[٢٥٥].

وقال العلامة أبو الحسن علي بن سلطان الهروي المكي، المعروف بالملا علي القاري (ت١٠١٤) رحمه الله تعالى: التمائم جمع تميمة، والمراد بها التعاويذ التي تحتوي على رقى الجاهلية من أسماء الشياطين، وألفاظ لا يُعرف معناها، وقيل: التمائم خرزات كانت العرب في الجاهلية تعلقها على أولادهم يتقون بها العين في زعمهم، فأبطله الإسلام؛ لأنه لا ينفع، ولا يدفع إلا الله تعالى[٢٥٦].

عن أبي بشير الأنصاري ﵁ أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، والناس في مبيتهم، فأرسل رسول الله ﷺ رسولاً أن (لا يُبقينّ في رقبة بعير قلادة من وتر، او قلادة إلا قُطعت)[٢٥٧] .

قال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله، المعروف بابن عبد البر (ت٤٦٣) رحمه الله تعالى: قد فسر مالك هذا الحديث: أنه من أجل العين، وهو عند جماعة كما قال مالك، لا يجوز عندهم أن يُعلّق على الصحيح من البهائم، أو بني آدم، شيء من العلائق خوف نزول العين؛ لهذا الحديث[٢٥٨].

---

(٢٥٤) انظر: التمهيد لابن عبد البر: ١٦٢/١٧، شرح السنة، للبغوي: ١٥٨/١٢، النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ١٩٧/١.

(٢٥٥) غريب الحديث: ١١٢/١.

(٢٥٦) مرقاة المفاتيح: ٢٨٠٣/٧.

(٢٥٧) البخاري في صحيحه (٣٠٠٥) ومسلم في صحيحه (٢١١٥).

(٢٥٨) التمهيد: ١٦٠/١٧.

ويروي عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه أن رهطاً قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فبايع تسعة منهم، ولم يبايع واحداً منهم، فقالوا: يا رسول الله بايعت تسعة وتركت هذا؟ فقال: (إنّ عليه تميمة، فأدخل يده فقطعها، فبايعه، وقال: من علّق تميمة فقد أشرك)(٢٥٩).

ولا شك أن من تعلق تميمة معتقداً فيها النفع، أو أنها تدفع الضرر بذاتها من دون الله، فهذا شرك أكبر.

ومن اعتقد أنها مجرد سبب في جلب الخير، أو دفع الضر، أو أنها سبب في ردّ العين، وأن الشافي المعافي هو الله تعالى، فذلك من الشرك الأصغر.

قال الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١) رحمه الله تعالى: طائفة يجعلون على أبواب بيوتهم ودورهم صور الحيات والعقارب والصلبان، يزعمون أنها تطرد الهوام عنهم، وإنما تطرد الملائكة إذ صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب، ولا صورة)(٢٦٠) ويقطعون قرون البقر والغنم والمعز بالنورة لأجل البركة، وكل هذا باطل لا شك في تحريمه، وقد يبلغ التحريم في بعضه إلى أن يكون من الكبائر(٢٦١).

قال الإمام أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي (ت٩٧٤) رحمه الله تعالى: ما كانوا يفعلونه من تعليق خرزة، يسمونها تميمة، أو نحوها، يرون أنها تدفع عنهم الآفات، ولا شك أن هذا جهل وضلال، وأنه من أكبر الكبائر، لأنه إن لم يكن شركاً فهو يُؤدي إليه، إذ لا ينفع ويضر، ويمنع ويدفع إلا الله تعالى(٢٦٢).

ولا شك أن من تعلق تميمة معتقداً فيها النفع أو أنها تدفع الضرر بذاتها من دون الله فهذا شرك أكبر.

ومن اعتقد أنها مجرد سبب مؤثر في جلب الخير، أو دفع الضر، أو أنها سبب في رد العين، وأن المؤثر الحقيقي هو الله تعالى، فذلك من الشرك الأصغر.

---

(٢٥٩) أحمد في المسند (١٧٤٢٢) ووثق رواته المنذري في الترغيب والترهيب: ٢٣٩/٤، والهيثمي في مجمع الزوائد: ١٠٦/٥.

(٢٦٠) البخاري في صحيحه (٣٣٢٢) ومسلم في صحيحه (٢١٠٦).

(٢٦١) الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع، ص: ١٢٠.

(٢٦٢) الزواجر: ٢٧٤/١.

وأما الرقى الشركية، فهي: كلمات يُعوذ بها العبد لرفع بلاء وقع به، أو دفع بلاء يُخاف منه. كالرقى التي فيها طلاسم، أو ألفاظ غير مفهومة، وخاصة إذا كانت من رجل غير معروف بالصلاح، أو كانت من كافر.

قال العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد الفاسي المالكي، المعروف بابن الحاج (ت٧٣٧) رحمه الله تعالى: وقد رُوي عن مالك رحمه الله تعالى في الرقى بغير العربية، فقال: وما يدريك لعله كفر(٢٦٣).

ولذلك شرط العلماء في الرقية حتى تكون رقية شرعية شروطاً:

قال الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢) رحمه الله تعالى: أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

أن يكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي، أو بما يُعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية غير مؤثرة بنفسها، بل بذات الله تعالى(٢٦٤).

وقال الإمام أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطّابي (ت٣٨٨) رحمه الله تعالى: كُره من الرقى مالم يكن بذكر الله واسمائه وبكتابه، وباللسان الذي يُعرف بيانه، ويُفهم معناه، ليكون بريئاً من شوب الشرك(٢٦٥).

ولا شك أن من اعتمد على الرقى الشركية اعتماداً كلياً، معتقداً أنها تنفع من دون الله، أو تضمنت صرف شيء من العبادة لغيره الله تعالى، فقد وقع في الشرك الأكبر المخرج من الملّة.

أما من اعتقد أنها مجرد سبب مؤثر في جلب الخير، أو دفع الضر، وأن المؤثر الحقيقي هو الله تعالى، فذلك من الشرك الأصغر.

والخلاصة أن أهل التوحيد الخالص لا يتعلقون بهذه التمائم، ولا بالرقى الشركية، ولا بأي شيء سوى الله تعالى، والإيمان في قلوبهم أعظم من أن يدخل عليه مثل هذه الأوهام، وهم أجل شأناً وأقوى يقيناً من أن يتوكلوا على غير الله أو يثقوا بغيره.

---

(٢٦٣) المدخل، لابن الحاج: ٣٢٣/٢.

(٢٦٤) فتح الباري: ١٩٥/١٠.

(٢٦٥) أعلام الحديث: ٢١٣٢/٣.

١٠-فصل في بيان أن دعاء الله تبارك وتعالى عبادة مأمور بها، وأن دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله = من الشرك الأكبر المخرج من الملة.

قال الله تعالى ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ غافر (٦٠).

قال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠) رحمه الله تعالى: قال أكثر المفسرين: المعنى: وحدوني، واعبدوني، أتقبل عبادتكم وأغفر لكم، وقيل: المراد بالدعاء: السؤال بجلب النفع ودفع الضر، قيل: الأول أولى؛ لأن الدعاء في أكثر استعمالات الكتاب العزيز: هو العبادة، قلت: بل الثاني أولى؛ لأن معنى الدعاء حقيقة وشرعاً: هو الطلب، فإن استُعمل في غير ذلك فهو مجاز، على أن الدعاء في نفسه باعتبار معناه الحقيقي هو العبادة، بل مخ العبادة، كما ورد بذلك الحديث الصحيح(٢٦٦) فالله سبحانه، قد أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة، ووعده الحق، وما يبدل القول لديه، ولا يخلف الميعاد، ثم صرّح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقي وهو الطلب، هو من عبادته، فقال: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي: ذليلين صاغرين، وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله، وفيه لطف بعباده عظيم، وإحسان إليهم جليل، حيث توعد من ترك طلب الخير منه، واستدفاع الشر به، بهذا الوعيد البالغ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة، فيا عباد الله وجهوا رغباتكم وعولوا في كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه، وأرشدكم إلى التعويل عليه، وكفل لكم الإجابة به، بإعطائكم الطِّلْبَة فهو الكريم المطلق الذي يُجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم وملكه الواسع، ما يحتاجه من أمور الدنيا والدين(٢٦٧).

قال الإمام محمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣) رحمه الله تعالى: قال بعض العلماء: المراد بالدعاء: العبادة، وبالإجابة الثواب، ويدل لهذا قوله بعده: إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين، وقال بعض العلماء: ادعوني استجب لكم، أي: اسألوني أُعطكم، ولا منافاة بين القولين؛ لأن دعاء الله من أنواع عبادته(٢٦٨).

---

(٢٦٦) حديث (الدعاء مخ العبادة) أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٧١) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. قلت: يغني عنه حديث (الدعاء هو العبادة) أخرجه أبو داود في سننه (١٤٧٩) والترمذي في سننه (٢٩٦٩) وابن ماجه في سننه (٣٨٢٨) وهو حديث ثابت.

(٢٦٧) فتح القدير، سورة غافر، آية (٦٠).

(٢٦٨) أضواء البيان، سورة البقرة، آية (١٨٦) وسورة غافر، آية (٦٠).

قال العلامة عبد الرحمن بن يحيى المُعلِّمِي اليماني (ت١٣٨٦) رحمه الله تعالى: يجب صرف العبادة بجميع أنواعها لله وحده، لا شريك له. فمن صرف منها شيئاً لغير الله؛ كمن دعا غير الله، أو ذبح أو نذر لغير الله، أو استعان، أو استغاث بميت أو غائب، أو بحي حاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فقد أشرك الشرك الأكبر، وأذنب الذنب الذي لا يُغفر إلا بالتوبة، سواء صرف هذا النوع من العبادة لصنم، أو لشجر، أو لحجر، أو لنبي من الأنبياء، أو ولي من الأولياء، حي أو ميت[٢٦٩].

فتبين مما سبق أنه لا يجوز لمسلم عاقل أن يدعو غير الله تعالى كائناً من كان، يرجو منه ويطلب ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فإن فعل ذلك فقد أشرك بالله سبحانه وتعالى، وكان من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ الأحقاف (٥).

ألا فليتنبه لهذا من ينادون الغائبين والموتي، ومن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، يطلبون منهم قضاء الحاجات وكشف الكربات، وربما اعتقدوا في هؤلاء ما كان يعتقده المشركون الأولون في أصنامهم وما كانوا يعبدون، من أن هؤلاء المدعوين يشفعون لهم عند الله أو يقربونهم إليه زلفى.

واعلم أن هنا أمران مهمان، يجب التنبه لها:

الأمر الأول: أن الأصل المتقرر والذي دلت عليه النصوص الشرعية: أن العبد يدعو الله سبحانه بأسمائه الحسنى، فيقول: اللهم إني أسألك يا الله، أو يا رب، أو يا رحمان، أو يا رحيم، وهكذا.

وليس له أن يدعو صفة من صفات الله تعالى وتقدس، وهذا مما يغلط فيه بعضهم، فتسمعه يقول: يا وجه الله، ويا رحمة الله، ويا لطف الله، وهكذا، وخاصة عند حدوث أمر مفجع له، فليحذر المسلم ذلك، وإذا أراد أن يدعو الله تعالى فليدعوه بأسمائه الحسنى، كما قال الله تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ الأعراف (١٨٠).

والأمر الآخر: أنه شاع على ألسنة كثير من المسلمين الاستثناء في الدعاء، فإذا دعا لنفسه أو لغيره من إخوانه المسلمين، أتبع ذلك بقوله: إن شاء الله، وقد جاء في الحديث: النهي عن ذلك.

---

(٢٦٩) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: .....

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا يقولنّ أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإنه لا مكره له)[٢٧٠] وفي رواية (إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني، فإنه لا مُستكره له)[٢٧١] وفي لفظ آخر (وليُعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)[٢٧٢].

قال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله، المعروف بابن عبد البر (ت٤٦٣) رحمه الله تعالى: لا يجوز لأحد أن يقول: اللهم اعطني إن شئت، وغير ذلك من أمور الدين والدنيا؛ لأنه كلام مستحيل لا وجه له؛ لأنه لا يفعل إلا ما شاءه[٢٧٣].

وقال الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢) رحمه الله تعالى: ومعنى الأمر بالعزم: الجدّ فيه، وأن يجزم بوقوع مطلوبه، ولا يعلق ذلك بمشيئة الله تعالى ... وقيل معنى العزم: أن يُحسن الظن بالله في الإجابة ... ومعنى قوله (وليعظم الرغبة): أي يبالغ في ذلك بتكرار الدعاء، والإلحاح فيه، ويُحتمل أن يراد به الأمر بطلب الشيء العظيم الكثير، ويؤيده ما في آخر هذه الرواية (فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه) وقوله (فإنه لا مستكره له) المراد أن الذي يحتاج إلى التعليق بالمشيئة، ما إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشيء، فيُخفف الأمر عليه، ويُعلم بأنه لا يُطلب منه ذلك الشيء إلا برضاه، وأما الله سبحانه فهو منزه عن ذلك، فليس للتعليق فائدة[٢٧٤].

وقال الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي (ت٤٧٤) رحمه الله تعالى: وأيضاً فإن في قوله (إن شئت) نوعاً من الاستغناء عن مغفرته، كقول القائل: إن شئت أن تعطني كذا فافعل، لا يُستعمل هذا إلا مع الغِنَى عنه، وأما المضطر إليه فإنه يعزم مسألته، ويسأل سؤال فقير مضطر إلى ما سأله[٢٧٥].

قلت: ولا يُشكل على هذا ما جاء أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده، فقال له: (لا بأس عليك طهور إن شاء الله ...)[٢٧٦] فهذا ليس من قبيل الدعاء، وإنما هو خبر،

---

(٢٧٠) البخاري في صحيحه (٥٩٨٠) ومسلم في صحيحه (٢٦٧٩) بلفظ قريب جداً.

(٢٧١) البخاري في صحيحه (٥٩٧٩) ومسلم في صحيحه (٢٦٧٨).

(٢٧٢) مسلم في صحيحه (٢٦٨٩).

(٢٧٣) أورده عنه ابن حجر في الفتح: ١٤٤/١١.

(٢٧٤) فتح الباري: ١٤٤/١١، ومثله في شرح النووي على مسلم: ١٧٩/١٧.

(٢٧٥) المنتقى، شرح الموطأ: ٣٥٦/١، وعنه القرطبي في تفسيره: ٣١٢/٢.

(٢٧٦) البخاري في صحيحه (٣٦١٦، ٧٤٧٠).

يخبر به النبي ﷺ الأعرابي تأنيساً له وتخفيفاً عنه: أن المرض يطهر صاحبه من الذنوب إن شاء الله[٢٧٧] لكن الأعرابي أبي ذلك، وقال: طهورٌ، بل حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور، فقال النبي ﷺ (فنعم إذاً).

فليجتهد المسلم في التأدب مع الله تبارك وتعالى في ألفاظه وكلماته، فإن حقاً على كل عبد أن يُقدّر الله تعالى حقّ قدره، وأن يُعظّمه حقّ تعظيمه، وأن يجتهد في تحقيق التوحيد بقلبه وألفاظه وجوارحه، وأن يبتعد عن كل ما يُخل بتوحيده.

(٢٧٧) انظر: شرح ابن بطال على صحيح البخاري: ٤٨٤/١٠، التوضيح لابن الملقن: ٣٩٧/٣، مرقاة المفاتيح: ١١٢٣/٢.

١١-فصل في بيان أن الاستعانة من العبادة، وأنه لا يستعان بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

الاستعانة بالله تبارك وتعالى من أجلّ العبادات، وعظيم الطاعات، وإذا أعان الله تعالى عبده تحققت له السعادة العاجلة والآجلة.

والاستعانة في لغة العرب وكلامها: مصدر للفعل: استعان، يستعين، وأصلها من العون، بمعنى: المعاونة، والمظاهرة على الشيء، يقال: فلان عوني؛ أي معيني، والاستعانة: طلب العون[٢٧٨].

وأما معنى الاستعانة بالله تبارك وتعالى، فهي: طلب العون من الرب الجليل لدفع الضر، أو جلب النفع، أو غير ذلك مما يهم العبد من أمور دينه ودنياه.

قال الله تبارك وتعالى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ الفاتحة (٤).

فأنت ترى أن الله تبارك وتعالى بعد أن أرشد عباده إلى أن يقولوا ﴿إياك نعبد﴾ أرشدهم إلى أن يقولوا: ﴿وإياك نستعين﴾ وكأنه سبحانه وتعالى يريد أن ينبههم إلى ضرورة الاستعانة بالله تعالى، وأن العبد حتى فيما يتعلق بعبادته لربه سبحانه وتعالى محتج إلى إعانة الله على ذلك.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: ومعنى قوله: ﴿وإياك نستعين﴾: وإياك ربنا نستعين على عبادتنا إياك وطاعتنا لك، وفي أمورنا كلها، لا أحداً سواك، إذ كان من يكفر بك يستعين في أموره معبودَه الذي يعبده من الأوثان دونك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة[٢٧٩].

وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٦) رحمه الله تعالى: الاستعانة نوع تعبد، فكأنه ذكر جملة العبادة، أولاً، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها[٢٨٠].

ولما كان العبد محتاجاً لإعانة الله تعالى له على عبادته وذكره وشكره، سن لنا نبينا صلى الله عليه وسلم أن نسأل الله تبارك وتعالى في دبر كل صلاة أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

---

(٢٧٨) مفردات ألفاظ القرآن: ٥٩٨، الصحاح للجوهري: ٢١٨٦/٦، لسان العرب: ٢٩٨/١٣.

(٢٧٩) جامع البيان، سورة الفاتحة، آية (٤).

(٢٨٠) الترمذي في سننه (٢٥١٦).

فعن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: (يا معاذ والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ: لا تدعنّ في دُبر كل صلاة تقول: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[٢٨١].

وهذا نبي الله موسى ﷺ يأمر قومه بأن يستعينوا بالله تعالى، وليس ذلك بغريب؛ فإن الخلق كلهم بحاجة إلى إعانة الله تعالى لهم، ومن سأل الله تعالى الإعانة أعانه سبحانه، فالله تبارك وتعالى لا يرد سائلاً صادقاً.

قال الله تعالى ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا﴾ الأعراف (١٢٨).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال له: (وإذا استعنت فاستعن بالله)[٢٨٢].

وإنما كانت الاستعانة بالله تعالى دون غيره، لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المُعان، ومن خذله الله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) فإن المعنى: لا تحول للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله، والعبد محتاج إلى الاستعانة بالله تعالى في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على الأقدار كلها، في الدنيا، وعند الموت، وبعده من أهوال البرزخ، ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه[٢٨٣].

وإذا تقرر هذا فنقول: الأصل أن العبد إنما يستعين بالله تبارك وتعالى فهو نعم المعين سبحانه، وإذا استعان العبد بمخلوق قادر على إعانته فيما يطلب، فلا شيء في ذلك، أما من استعان بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله فهذا من الشرك، والعياذ بالله تعالى.

---

(٢٨١) أبو داود في سننه (١٥٢٢) وقال النووي في الأذكار: ١٠٣: إسناده صحيح، وقال ابن حجر في بلوغ المرام: ٩٦: إسناده قوي.

(٢٨٢) الترمذي في سننه (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢٨٣) جامع العلوم والحكم: ٤٨١-٤٨٢.

١٢-فصل في بيان أن الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك.

الاستغاثة طلب الغوث، يقال: استغاثني، فأغثته. ويقول الواقع في بلية: أغثني، أي: فرّج عني[٢٨٤].

فعلى هذا فتكون الاستغاثة في الشدائد والأزمات والملمات، فهي أخص من الاستعانة، فكل استغاثة استعانة، ولا عكس.

قال الله تعالى ﴿إذ تستغيثون ربك فاستجاب لكم﴾ الأنفال (٩).

قال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦) رحمه الله تعالى: تستجيرون به من عدوكم، وتطلبون منه الغوث[٢٨٥].

وقال تعالى ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه﴾ القصص (١٥).

والمعنى: فاستغاث الإسرائيلي بموسى ﷺ وطلب منه أن ينصره على هذا القبطي، فأغاثه؛ لأن نصر المظلوم واجب في جميع الملل، فعمد موسى إلى القبطي فوكزه، فقضى عليه[٢٨٦] .

وهذه استغاثة لا شيء فيها، فإن موسى ﷺ قادر على نصرة من استغاث به، أما إذا كانت الاستغاثة في أمر لا يقدر على الإغاثة به إلا الله، فهي من الشرك، وسواء كان المستغاث به حياً أو ميتاً، حاضراً أم غائباً.

ومن المظاهر المؤسفة ما يفعله بعض الجهلة من الاستغاثة بالأموات، والذهاب إلى بعض أهل القبور ممن يُعتقد فيهم الصلاح، ومن يسميهم الناس (أولياء) يطلب منهم كشف الكروب، وقضاء الحوائج، والميت في قبره قد انقطع عمله، ولا يستطيع أن يجلب لنفسه نفعاً، أو يدفع عن نفسه ضراً، فضلاً عمن استغاث به وسأله قضاء حاجة، أو سأله أن يشفع له إلى الله في قضائها، وهذا من أقبح الجهل، فإن الميت بحاجة إلى من يدعو له ويترحم عليه، وهذا هو المسنون للمسلمين إذا زاروا القبور، لكن الجهل يفعل بصاحبه الأفاعيل، نعوذ بالله من سوء المنقلب.

---

(٢٨٤) التفسير الكبير، سورة الأنفال، آية (٩) فتح القدير، سورة الأنفال (٩).

(٢٨٥) معالم التنزيل، سورة الأنفال، آية (٩).

(٢٨٦) تفسير ابن كثير، سورة القصص، آية (١٥) فتح القدير، سورة القصص، آية(١٥).

١٣-فصل في أن الاستعاذة عبادة، وأنها لا تكون إلا بالله.

الاستعاذة من أجل الطاعات وأشرف القربات، فإن العبد فقير فقراً ذاتياً إلى مولاه، كما قال الله تعالى ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ فاطر (١٥) ولا حيلة له في هذه الحياة ولا نجاة؛ إلا بأن يكون دائم الصلة بخالقه سبحانه وتعالى، محتمياً بحماه، مستجيراً به في كل نائبة وضائقة، فإن تنبه العبد إلى ذلك = سَعُد في عاجله وآجله، وإن غفل عن ذلك ساء حاله، وكان أمره فُرُطاً.

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال لفطمة رضي الله عنها: (ما يمنعك أن تسمعي ما أُوصيك به، أن تقولي إذا أصبحتِ وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين)[٢٨٧] .

والاستعاذة في لغة العرب: طلب العوذ، والعوذ: اللجوء والالتجاء إلى الشيء[٢٨٨].

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرطُبي (ت٦٧١) رحمه الله تعالى: الاستعاذة في كلام العرب: الاستجارة، والتحيز إلى الشيء على معنى الامتناع به من المكروه، يقال: عذت بفلان، واستعذت به؛ أي: لجأت إليه، وهي عياذي، أي: مَلجئي[٢٨٩].

وعلى هذا المعنى جاء حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرّف لها تستشرفه، فمن وجد منها ملجأ، أو مَعاذاً فليعذ به)[٢٩٠] .

قال الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢) رحمه الله تعالى: قوله (مَعاذاً) بفتح الميم، هو بمعنى الملجأ، قال ابن التين: ورويناه بالضم[٢٩١].

وظاهرٌ أن الاستعاذة تكون في الشدائد والملمات، فعلى هذا فهي أخص من الاستعانة، فكل استعاذة استعانة، ولا عكس.

---

(٢٨٧) النسائي في السنن الكبرى: ١٤٧/٦، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: ٣١٣/١: إسناده صحيح.

(٢٨٨) الصحاح، للجوهري: ٤٧١/١.

(٢٨٩) الجامع لأحكام القرآن: ٤/١.

(٢٩٠) البخاري في صحيحه (٦٦٧٠) ومسلم في صحيحه ().

(٢٩١) فتح الباري: ٣٤/١٣.

والاستعاذة كما تكون بأسماء الله تعالى فتكون أيضاً بصفة من صفاته، وأدلة ذلك كثيرة، منها:

ما جاء عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت خولة بنت حكيم السلمية، تقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك)[٢٩٢] .

فهذا الحديث وغيره فيه بيان جواز الاستعاذة بصفة من صفات الله تعالى، والمستعيذ بالصفة المضافة لله تعالى، مستعيذ بالله تعالى؛ لأن الصفة ملازمة لذات الله تعالى، لا تنفك عنها[٢٩٣].

والأصل أن المخلوق لا يستعيذ بمخلوق، إنما يستعيذ بالله تعالى، فهي عبادة يحبها الله حيث أمر بها عباده، وعلى العبد أن يمتثل أمر ربه سبحانه، ويستعيذ به في كل وقت وحين عند حاجته لذلك.

وقد اختلف العلماء في جواز الاستعاذة بغير الله تعالى، إذا كان هذا الغير يقدر على العوذ، على قولين:

أحدهما: أن الاستعاذة لا تصلح إلا بالله وحده، ولا يُستعاذ بمخلوق مطلقاً، ولو كان فيما يقدر عليه، فلفظ (الاستعاذة) كلفظ (التوكل) لا يكون إلا بالله وحده، فكما أنه لا يجوز أن تقول: توكلت على فلان، أو توكلت على الله ثم على فلان، لأن التوكل كله عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله تعالى، فلا يجوز كذلك أن يقال: يا فلان أعوذ بك، أو أعوذ بالله ثم بك؛ لأن الاستعاذة: توجه القلب واعتصامه والتجاؤه، ورغبه ورهبه، ففيها هذه المعاني جميعاً، وهذه المعاني لا تصلح إلا لله تعالى.

قال الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦) رحمه الله تعالى: وقال نعيم: لا يُستعاذ بمخلوق[٢٩٤].

وقال الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت٣١١) رحمه الله تعالى: هل سمعتم عالماً يُجيز أن يقول الداعي: أعوذ بالكعبة من شر ما خلق، أو يُجيز أن يقول: أعوذ بالصفا والمروة، أو أعوذ بعرفات ومنى من شر ما خلق الله، هذا

---

(٢٩٢) مسلم في صحيحه (٢٧٠٨) وانظر صحيح البخاري (٣٣٧١).

(٢٩٣) وقد قرر هذا المعنى العلامة ابن أبي العز الحنفي (ت٧٩٢) في شرحه للعقيدة الطحاوية: ١٢٦-١٢٧.

(٢٩٤) خلق أفعال العباد: ٢٣٢/٢. ذكر هذا في معرض بيان أن كلام الله غير مخلوق، حيمنا ذكر استعاذة النبي صلى الله عليه وسلم بكلمات الله.

لا يقوله ولا يُجيز القول به مسلم يعرف دين الله، محال أن يستعيذ مسلم بخلق الله من شر خلقه[٢٩٥].

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨) رحمه الله تعالى: ولا يصح أن يستعيذ بمخلوق من مخلوق[٢٩٦].

والقول الآخر: أن الاستعاذة بمخلوق حي قادر مستطيع أن يعيذ من استعاذ به، فهي جائزة لا شيء فيها، إنما الممنوع والذي هو من الشرك والعياذ بالله أن يستعيذ بمخلوق في أمر لا يقدر عليه إلا الله تبارك وتعالى، ومن ذلك من يستعيذ بالغائبين، والموتى.

واستُدل لهذا القول بما يلي:

١-عن أبي مسعود ﵁ أنه كان يضرب غلامه، فجعل يقول أعوذ بالله، قال: فجعل يضربه، فقال: أعوذ برسول الله، فتركه، فقال رسول الله ﷺ: (والله لله أقدر عليك منك عليه) قال: فأعتقه[٢٩٧] ورواه بعضهم عن شعبة، ولم يذكر قوله: أعوذ بالله، أعوذ برسول الله.

٢-عن جابر بن عبد الله ﵁ أن امرأة من بني مخزوم سرقت، فأُتي بها النبي ﷺ فعاذت بأم سلمة زوج النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: (والله لو كانت فاطمة لقطعت يدها، فقُطعت)[٢٩٨].

٣-ما رُوي عن إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى، أنه: يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول بالله ثم بك[٢٩٩].

وسبب الخلاف في هذه المسألة والله أعلم: أن الاستعاذة لها تعلق بالباطن والظاهر، فتعلقها بالباطن من جهة أنها عمل قلبي، ففيها: اعتصام والتجاء، فهي

(٢٩٥) كتاب التوحيد: ٤٠١/١. وقد أورد ابن خزيمة هذا الكلام بعد أن أورد حديث (أعوذ بكلمات الله التامات) ليبرهن أن كلام الله تعالى غير مخلوق، لأنه لو كان مخلوقاً لما جاز الاستعاذة به، إذ لا تجوز الاستعاذة بمخلوق.

(٢٩٦) الأسماء والصفات: ٢٤١. وهذا ذكره البيهقي بعد أن ذكر بعض أحاديث الاستعاذة بكلمات الله، ليدلل على أن كلام الله غير مخلوق.

(٢٩٧) مسلم في صحيحه (١٦٥٩).

(٢٩٨) مسلم في صحيحه (١٦٨٩).

(٢٩٩) عبد الرزاق، في المصنف (١٩٨١١).

عبادة قلبية، وعبادات القلوب لا يجوز أن تصرف لمخلوق أبداً، وفيها مع ذلك عمل ظاهر، وهو مساعدة غيره له، ليمنعه من هذا الشر؛ إذا كان هذا الغير قادراً، فمن نظر إلى العمل الباطن وما يقوم بالقلب حال الاستعاذة وغلّبه، منع من الاستعاذة بالمخلوق القادر مطلقاً، ومن نظر إلى الظاهر جوز ذلك، مع اطمئنان القلب بالإيمان بأن الله تعالى هو القادر على كل شيء، وأن المستعاذ به القادر، إنما هو سبب، قد يُفيد وقد لا يُفيد.

وقد جاء في القرآن العظيم آيات يأمرنا الله تبارك وتعالى فيها أن نستعيذ به من الشياطين ومن سائر الشرور، ومنها:

قال الله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ الأعراف (٢٠٠).

قال الله تعالى ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ النحل (٩٨).

ففي هاتين الآيتين يأمرنا الله تبارك وتعالى أن نستعيذ به من الشيطان عند نزغاته ووساوسه، وعند تلاوة كتابه[٣٠٠].

والمسلم باستعاذته بربه من الشيطان الرجيم، يعترف بعجزه وضعفه أمام حيل الشيطان ووساوسه، وأنه لا يقوى على مقاومة الشيطان لوحده، فيلجأ العبد إلى ربه طالباً منه أن يعيذه من هذا العدو المبين.

وقال تعالى: ﴿قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ...﴾ الفلق (١).

وقال تعالى: ﴿قل أعوذ برب الناس ...﴾ الناس (١-٢).

ومعنى هذه الآيات من هاتين السورتين ظاهر جداً في مسألة الاستعاذة بالله تعالى من هذه الشرور، وهاتان السورتان شأنهما عظيم، حتى قال النبي ﷺ لعقبة بن عامر رضي الله عنه: (يا عقبة تعوذ بهما، فما تعوذ متعوذ بمثلهما)[٣٠١].

وجاء من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجانّ، وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما[٣٠٢].

---

(٣٠٠) انظر: تفسير ابن كثير، سورة النحل، آية (٩٨).

(٣٠١) أبو داود في سننه (١٤٦٣) وسكت عنه.

(٣٠٢) الترمذي في سننه (٢٠٥٨) والنسائي في سننه (٥٤٩٤) وابن ماجه في سننه (٣٥١١).

وقد لبّس الشيطان من قديم الزمان على فئام من الناس، فصرفهم عن الاستعاذة بالله تعالى في دفع الشرور والآفات، إلى التعوذ بالمخلوقات التي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً، فكيف تملك لغيرها شيئاً.

ومن هؤلاء أقوام قصّ الله علينا خبرهم في القرآن العظيم، كانوا يستعيذون بالجن، في دفع المكروه عنهم، وأخبر سبحانه أن هذا الفعل منهم زادهم إثماً، وزاد الجن جرأة عليهم.

قال تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾ الجن (٦).

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية، فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي، فزادهم ذلك إثماً.

وعن الحسن رحمه الله تعالى، قال: كان الرجل منهم إذا نزل الوادي، فبات به، قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي، من شر سفهاء قومه.

وعن إبراهيم رحمه الله تعالى، قال: كانوا إذا نزلوا الوادي، قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه، فتقول الجن: ما نملك لكم، ولا لأنفسنا ضراً ولا نفعاً.

قال ابن زيد: ... فلما جاء الإسلام، عاذوا بالله وتركوهم[٣٠٣] .

وعن عكرمة رحمه الله تعالى، قال: كان الجن يَفرَقون من الإنس، كما يفرق الإنس منهم أو أشد، وكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن، فيقول سيد القوم: نعوذ بسيد هذا الوادي. فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم، فدنوا من الإنس، فأصابوهم بالخبل والجنون، فذلك قول الله ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾[٣٠٤] .

قال الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر الرازي، المعروف بابن أبي حاتم (ت٣٢٧) رحمه الله تعالى: عن كردم بن أبي السائب الأنصاري رضي الله عنه قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذُكر رسول الله ﷺ بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعي، فقال: يا عامر الوادي، أنا جار دارك، فنادى مناد لا نراه: يا

---

(٣٠٣) ذكر هذه الآثار مسندة، ابن جرير في جامع البيان، سورة الجن، آية (٦).

(٣٠٤) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٩٠٠٠).

سرحان أرسله، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم، وأنزل الله على رسوله بمكة ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾[٣٠٥] .

قال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى، بعد أن ذكر هذه الحكاية: وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل، وهو ولد الشاة، كان جنياً (يعني تمثل للإنس في صورة ذئب) حتى يُرهب الإنسي ويخاف منه، ثم رده عليه لما استجار به؛ ليضله ويُهينه، ويخرجه عن دينه، والله أعلم[٣٠٦].

فانظر حين يغيب التوحيد عن الأرض، كيف تظلم قلوب أهلها، وتلتبس عليهم الحقائق، وتغيب عنهم البراهين والحجج، حتى تتعلق قلوبهم بغير الله تعالى ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً، وهذا مشاهد في كثير من أرجاء الأرض حين يضعف اهتمام الناس بالتوحيد، وحين تضعف عزائم أهل العلم عن نشر الحق بسبب الجهل بحقيقة التوحيد، أو بسبب التقليد الأعمى، أو بسبب التعصب لمقالات من لم يفهم حقيقة التوحيد = كيف تنتشر الضلالات والبدع والخرافات، وكيف تنتشر الشركيات، وتفسد القلوب وتنتكس الفطر، حتى ترى من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ بلسانه، متعلقاً بشيخ من المشايخ الذين يسمونهم (شيوخ الطرق) وماهم والله إلا (شيوخ الشرك والضلال) أو عاكفا على قبر، أو منطرحاً منكسراً خاشعاً أمام ضريح يدعوه ويرجوه، ويؤمل فيه آمالاً لا تكون إلا في الله تعالى، أو طالباً الحاجات من غائب يدعونه ولياً وصالحاً، أو يظنون أن هؤلاء المخلوقين يقربونهم من الله، وبهم وبتعظيمهم يقضي الله حوائجهم، وإذا ناقشتهم فيما يفعلون، أجابوك سريعاً بقولهم: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ولا أدري ما علاقة هذه الآية بما يفعلون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(٣٠٥) تفسير ابن أبي حاتم (١٩٠٠٢) وقد أورد السيوطي في الدر المنثور حكايات وقصص وغرائب في استعاذة العرب في جاهليتهم بالجن، وما كانت الجن تفعله معهم: فانظر منه سورة الجن، آية (٦).

(٣٠٦) انظر: تفسير ابن كثير، سورة الجن، آية (٦).

١٤-فصل في النهي عن الحلف بغير الله تعالى، وأنه من الشرك.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (ألا من كان حالفاً، فلا يحلف إلا بالله)[٣٠٧] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال (ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله وإلا فليصمت)[٣٠٨] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: (من حلف بغير الله فقد أشرك)[٣٠٩] .

وعن بُريدة بن الحُصَيب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (من حلف بالأمانة، فليس منّا)[٣١٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (من قال منكم في حَلِفه: باللات والعزى، فليقل لا إله إلا الله)[٣١١] .

وقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لأن أحلف بالله كاذباً، أحب إلى من أن أحلف بغيره وأنا صادق[٣١٢].

وإنما قال ابن مسعود ذلك؛ لأن الكذب ذنب عظيم، بينما الحلف بغير الله تعالى شرك، وسيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، كما سيأتي بيان ذلك.

قال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله، المعروف بابن عبد البر (ت٤٦٣) رحمه الله تعالى: أجمع العلماء على أن اليمين بغير الله مكروهة، منهي عنها، لا يجوز الحلف بها لأحد[٣١٣] .

---

(٣٠٧) البخاري في صحيحه (٣٨٣٦) ومسلم في صحيحه (١٦٤٦).

(٣٠٨) البخاري في صحيحه (٦١٠٨).

(٣٠٩) أبو داود في سننه (٣٢٥١) والترمذي في سننه (١٥٣٥) وقال: حديث حسن.

(٣١٠) أبو داود في سننه (٣٢٥٣) وصحح إسناده النووي في الأذكار (٤٥٦) والمنذري في الترغيب والترهيب: ١٢٤/٣.

(٣١١) البخاري في صحيحه (٦١٠٧) ومسلم في صحيحه (١٦٤٧).

(٣١٢) ابن أبي شيبة في المصنف (١٢٤١٤) وانظر: مصنف عبد الرزاق (١٥٩٢٩) وقال المنذري في الترغيب والترهيب: ٨/٤: رواته رواة الصحيح.

(٣١٣) التمهيد: ٣٦٧/١٤.

وقال العلامة علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني (ت٥٨٧) رحمه الله تعالى: اليمين إنما يُقصد بها تعظيم المقسم به ... والمستحق للتعظيم بهذا النوع هو الله تعالى؛ لأن التعظيم بهذا النوع عبادة، ولا تجوز العبادة إلا لله تعالى[٣١٤] .

وقال الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢) رحمه الله تعالى: قال العلماء: السر في النهي عن الحلف بغير الله: أن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه، والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده[٣١٥].

وقال أيضاً: قال المُهلّب: كانت العرب تحلف بآبائها وآلهتها، فأراد الله نسخ ذلك من قلوبهم، لينسيهم ذكر كل شيء سواه، ويبقى ذكره؛ لأنه الحق المعبود، فلا يكون اليمين إلا به[٣١٦].

والأصل أن الحلف بغير الله تعالى من الشرك الأصغر الذي لا يُخرج صاحبه من دين الله تعالى، وهو من المحرمات، لكن إن أقسم بغير الله تعالى، وجعل المقسم به بمنزلة الله في التعظيم والقدرة على النفع والضر، كما يفعل بعض عُبّاد القبور من قسمهم بصاحب القبر، واعتقادهم أن له قدرة على التصرف بالضر والنفع الغيبي، فيجعلونه شهيداً على صدقهم، فلا شك أن هذا من الشرك الأكبر، وهذا لا يقع من عبد أعمل عقله، وتفكر في خالقه، وأدرك الفرق بين الخالق والمخلوق، وإنما يقع من جاهل أعماه التقليد ومتابعة غيره على غير برهان ودليل، فحال هذا كحال المشركين الأولين الذي قالوا ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ الزخرف (٢٢).

قال الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢) رحمه الله تعالى: فإن اعتقد في المحلوف به من التعظيم، ما يعتقده في الله، حرم الحلف به، وكان بذلك الاعتقاد كافراً[٣١٧].

وإنما حَرُم الشرك الأصغر؛ لأنه وسيلة إلى الوقوع في الشرك الأكبر، وتحريمه في الشريعة من باب تحريم الوسائل التي قد تُفضي إلى ما هو أعظم وأخطر، وكل هذا

(٣١٤) بدائع الصنائع: ٣/٢.

(٣١٥) فتح الباري: ٥٣٩/١١.

(٣١٦) فتح الباري: ٥٤٣/١١.

(٣١٧) فتح الباري: ٥٣٩/١١، وانظر: آثار الشيخ عبد الرحمن المعلِّمي: ١٠١٨/٣.

من باب حماية جناب التوحيد، وسدّ كل طريق يُفضي بالعبد إلى الخروج من دائرة الإيمان، ويُفسد عليه توحيده.

ولا يشكل على هذا ما جاء في القرآن الكريم من أن الله تعالى أقسم ببعض مخلوقات، فذلك خاص بالله تعالى، فإن الله تعالى له أن يقسم بما شاء، أما العبد فلا يقسم إلا بالله تعالى.

ومما يُنبه إليه: ما جاء في حديث طلحة بن عبيد الله ﵁ في قصة الرجل الذي سأل النبي ﷺ عن الإسلام، فأخبره النبي ﷺ وفيه أن النبي ﷺ قال (أفلح وأبيه إن صدق)[٣١٨]

ومثله أيضاً: ما جاء في حديث أبي هريرة ﵁ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال (أما وأبيك لتنبأنه، أن تصدق وأنت صحيح شحيح ...)[٣١٩] .

فأنت ترى أن في هذين الحديثين قَسَمٌ بالآباء، وقد أجاب العلماء عن ذلك فمنهم، من يرى أن هذه الألفاظ لا تثبت عن النبي ﷺ أخطأ من أدخلها في هذه الأحاديث.

قال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله، المعروف بابن عبد البر (ت٤٦٣) رحمه الله تعالى: فإن احتج محتج بحديث يُروى ... عن طلحة في قصة الأعرابي النجدي، أن النبي ﷺ قال (أفلح وأبيه إن صدق) قيل له: هذه لفظة غير محفوظة في هذا الحديث ... وقد روى الحديث مالك وغيره ... لم يقولوا ذلك فيه، وقد رُوي عن إسماعيل بن جعفر هذا الحديث، وفيه (أفلح والله إن صدق) أو (دخل الجنة والله إن صدق) وهذا أولى من رواية من روى (وأبيه) لأنها لفظة منكرة تردها الآثار الصحاح[٣٢٠].

قلت: وحديث طلحة هذا رواه البخاري، ولفظه عنده (أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق)[٣٢١] .

وقال الإمام أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطّابي (ت٣٨٨) رحمه الله تعالى: هذه كلمة جارية على ألسُنِ العرب، تستعملها كثيراً في خطابها، تريد بها التوكيد ... والعرب

---

(٣١٨) مسلم في صحيحه (١١)

(٣١٩) مسلم في صحيحه (١٠٣٢).

(٣٢٠) التمهيد: ٣٧٦/١٤.

(٣٢١) البخاري في صحيحه (٤٦، ١٨٩١).

قد تطلق هذا اللفظ في كلامها على ضربين؛ أحدهما: على وجه التعظيم، والآخر: على سبيل التوكيد للكلام، دون القسم[٣٢٢].

وقال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦) رحمه الله تعالى: قوله ﷺ (أفلح وأبيه) ليس هو حلفاً، إنما هو كلمة جرت عادة العرب أن تدخلها في كلامها، غير قاصدة بها حقيقة الحلف، والنهي إنما ورد فيمن قصد حقيقة الحلف؛ لما فيه من إعظام المحلوف به، ومضاهاته به الله سبحانه وتعالى، فهذا هو الجواب المرضي[٣٢٣].

وقيل: يُحتمل أن يكون هذا قبل النهي عن الحلف بغير الله، تعالى والله أعلم.

وعلى القول بأن هاتين اللفظتين ثابتتان عن النبي ﷺ فنقول: إن هذه اللفظة من الألفاظ المشكلة، ولا يجوز أن نعارض بها النصوص المحكمة في هذا الفصل، وهي النهي الصحيح الصريح عن الحلف بغير الله تعالى، والمسلم لا يترك المحكم ويذهب إلى المتشابه، والله أعلم.

وعلى المسلم أن يحفظ يمينه، وأن لا يُعوّد لسانه على الحلف، وقد قال بعضهم في معنى قول الله تعالى ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ المائدة (٨٩) أي أقلّوا منها[٣٢٤].

---

(٣٢٢) معالم السنن: ١/١٢١.

(٣٢٣) شرح النووي على مسلم: ١/١٦٨.

(٣٢٤) زاد المسير، سورة المائدة، آية (٨٩).

١٥-فصل في بيان النهي عن قول: ما شاء الله وشاء فلان.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما شاء الله وشئت، فقال: (أجعلتني لله عِدلاً؟ بل ما شاء الله وحده)[٣٢٥] .

ففي هذا الحديث النهي عن التشريك بين الله وبين خلقه في المشيئة، بحرف الواو، لأن الواو حرف جمع وتشريك، فقد يُفهم من ذلك المساواة بين الله تعالى وخلقه، وهذا لا يجوز، بل هو من الشرك، فكيف يساوي العاقل بين الله سبحانه الخالق، وبين العبد المخلوق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فأرشد النبي ﷺ هذا الرجل إلى ما هو الأكمل والأحسن، بأن يقول: ما شاء الله وحده، وإن قال: ما شاء الله، ثم شاء فلان، بلفظة (ثم) التي لا تدل على تشريك ولا مساواة، بل تدل على أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى، فذلك مباح؛ لما جاء من حديث حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (لا تقولوا: ما شاء الله، وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان)[٣٢٦] .

وهذا يدلنا على أن النبي ﷺ كان يجتهد في حماية التوحيد حتى من الكلمة التي ربما تخدش توحيد المتكلم بها.

وقد انتشر على ألسنة كثير من الناس مثل هذه الألفاظ التي تقدح في توحيد المسلم، كقول بعضهم: أنا بالله وبك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، ولولا الله وفلان، أو الفضل لله ولك، وأمثال هذه الألفاظ التي يجعل قائلها المخلوق نداً للخالق، وهي أشد منعاً وقبحاً من قوله: ما شاء الله وشئت.

لكن إذا قال العبد كما تقدم: ما شاء الله ثم شئت، أو لولا الله ثم فلان ... وهكذا، فلا حرج إن شاء الله تعالى، إلا إذا كان اللفظ من ألفاظ العبادة، فليتنبه المسلم وليجعل العبادة خالصة لله تعالى، ولا يجعل مع الله تعالى غيره، فلا يقل مثلاً: توكلت على الله ثم عليك؛ لأن التوكل عبادة، وليقل: توكلت على الله وحده، والعبد يُوكل في قضاء الأمور، ولا يُتوكل عليه، إنما التوكل على الله تعالى، ويقول العبد في مثل ذلك: وكلتك يا فلان في فعل كذا وكذا.

---

(٣٢٥) أحمد في المسند (١٨٤٢، ١٩٦٥، ٢٥٥٧، ٣٢٣٧) والنسائي في الكبرى: ٢٤٥/٦، وابن ماجه في سننه (٢١١٧) وإسناده: حسن، انظر: المغني في تخريج الإحياء، للعراقي: ٢٠٠/٣، تحقيق المسند، للشيخ أحمد شاكر: ٢٠٣/٣.

(٣٢٦) أبو داود في سننه (٤٩٨٠) وهو حديث صحيح.

فإن قيل: جاء في بعض الأحاديث ومنها حديث معاذ المتقدم في حق الله على العباد، وفيه أن معاذاً قال للنبي ﷺ: الله ورسوله أعلم، ولم ينكر عليه النبي ﷺ ذلك؟ فالجواب عن ذلك أن نقول:

هناك فرق بين المسائل القدرية الكونية، والمسائل الشرعية:

فالمسائل القدرية كالمشيئة، لا يجوز أن يُشرّك فيها أحد مع الله تعالى، فمن قال: ما شاء الله وشئت يا فلان، كأنه يساوي مشيئة الله تعالى بمشيئة المخلوق، فمن اعتقد التشريك بين الخالق والمخلوق في المشيئة، فذلك شرك أكبر والعياذ بالله تعالى، ومن لم يعتقد ذلك، فهو إشراك في اللفظ، فيكون شركاً أصغر محرماً تجب التوبة منه.

وأما المسائل الشرعية، فلا حرج في مثل قول معاذ رضي الله تعالى عنه؛ لأن النبي ﷺ مُبلّغ عن الله تعالى، فالعلم الذي يأتي به معلوم أنه مما أوحاه الله تعالى إليه، ليس فيه إلا مجرد البلاغ عن الله تعالى، ولا يعني هذا أبداً أن علم رسول الله ﷺ مساو لعلم الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وأما ما جاء من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ: (بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله)[٣٢٧] .

فقد قال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦) رحمه الله تعالى: قال القاضي وجماعة من العلماء: إنما أنكر عليه لتشريكه في الضمير المقتضي للتسوية، وأمره بالعطف تعظيماً لله بتقديم اسمه ... والصواب: أن سبب النهي: أن الخطب شأنها البسط والإيضاح، واجتناب الإشارات والرموز ... ومثل هذا الضمير قد تكرر في الأحاديث الصحيحة من كلام رسول الله ﷺ مثل قوله ﷺ (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) ... وإنما ثنى الضمير هاهنا؛ لأنه ليس خطبة وعظ، وإنما هو تعليم حكم[٣٢٨].

---

(٣٢٧) مسلم في صحيحه (٨٧٠).

(٣٢٨) شرح النووي على صحيح مسلم: ٤٦٨/٦.

١٦-فصل في النهي عن قول (لو) إذا كان في ذلك اعتراض وتسخط على القدر.

قال تعالى: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون **لو** كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ آل عمران (١٥٤).

وذلك أن المنافقين قال بعضهم لبعض: لو كان الأمر إلينا لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة، ولم يُقتل رؤساؤنا، وإنما أُخرجنا كرهاً، فأخبر سبحانه وتعالى عنهم أنهم قد ظنوا بالله ظن الجاهلية وهو التكذيب بالقدر، وأنكم لو تخلفتم ولم تخرجوا، لخرج منكم من كُتب عليه القتل، ولم ينجه القعود، فهذا قدر مقدر من الله تعالى، وحكم حتم لا مناص منه[٣٢٩].

وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزّىً **لو** كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾ آل عمران (١٥٦).

وقال سبحانه: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا **لو** أطاعونا ما قُتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ آل عمران (١٦٨).

والكلام في هاتين الآيتين كالكلام في سابقتهما، وأن هذا القول لا يقوله أهل الإيمان بقضاء الله وقدره، وإنما يقوله أهل النفاق، ومن جهل القدر والحكمة الإلهية منه.

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تَعجِزنّ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت، لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[٣٣٠].

قال الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي (ت٦٥٦) رحمه الله تعالى: الذي يتعين بعد وقوع المقدور: التسليم لأمر الله، والرضى بما قدره الله تعالى، والإعراض عن الالتفات لما مضى وفات، فإن افتكر في ما فاته من ذلك، وقال: لو أني فعلت كذا؛ لكان كذا، جاءته وساوس الشيطان، ولا تزال به حتى تُفضي به إلى الخسران، لتعارض توهم التدبير سابق المقادير، وهذا هو عمل الشيطان الذي نهي عنه النبي ﷺ بقوله (فلا تقل لو فإن لو تفتح عمل الشيطان) ولا يُفهم من هذا أنه لا يجوز النطق بلو مطلقاً، إذ قد نطق بها النبي ﷺ ... لأن محل النهي عن إطلاقها إنما هو

---

(٣٢٩) انظر: معالم التنزيل، وزاد المسير، سورة آل عمران، آية (١٥٤).

(٣٣٠) مسلم في صحيحه (٢٦٦٤).

في ما إذا أطلقت في معارضة القدر، أو مع اعتقاد أن ذلك المانع لو ارتفع، لوقع خلاف المقدور[٣٣١].

ومن ذلك قولهم: لولا فلان لما كان كذا وكذا، ولولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى السرّاق.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ البقرة (٢٢) قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلانة، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص[٣٣٢].

وكل هذا من ضعف الإيمان بالقضاء والقدر أو عدمه، وليعلم من أراد أن يكون موحداً صادقاً أنه لا يوجد مخلوق يستقل بإحداث شيء دون الله تعالى، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وما كان هناك من أسباب يقوم بها العبد لجلب خير أو دفع ضير، فإنما هي نعمة وفضل من الله تبارك وتعالى، قد يتحقق بها ما يريده العبد، وقد لا يتحقق، وقد ينعم الله على العبد دون بذل أي سبب، فالله تبارك وتعالى هو المنعم على العبد حقيقة، والواجب على العبد أن يسلّم ويستسلم لقضاء الله تعالى وقدره، وليعلم أن لله في أحكامه وقضائه وقدره حكم عظيمه وأسرار عجيبة.

ولذا جاء عن النبي ﷺ في الحديث المشهور في وصيته لابن عباس رضي الله عنهما، قال: (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف)[٣٣٣] .

وهذا حديث عظيم النفع جداً لمن تأمله وفهمه، فإنه يريح قلب العبد، ويقوي إيمانه بقضاء ربه وقدره، وفيه أنه يتعين على العبد أن يكون قلبه متعلقاً بربه، معتقداً أن كل نعمة تحل به فهي من الله وحده، وأن كل ضر اندفع عنه إنما هو برحمة الله له، ولو بذل العبد سبباً لجلب النعمة أو دفع النقمة، فليعتقد أن هذا السبب نعمة

---

(٣٣١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٦٨٢/٦.

(٣٣٢) ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٢٩).

(٣٣٣) الترمذي في سننه (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح، وصححه الحافظ عبد الحق الأشبيلي في أحكامه: ٣٣٣/٣.

أخرى من الله، وأن السبب لا يمكن أن يستقل بجلب نفع ودفع ضر من دون الله تبارك وتعالى.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ الواقعة (٨٢).

فهذا خبر من الله تعالى يخبر به عن طائفة من عباده، رزقهم وتفضل عليهم، فبدلاً من أن يشكروه على ما أنعم وتفضل، نسبوا تلك النعم لغيره، فوضعوا التكذيب موضع الشكر، وكل من نسب النعم لغير الله تعالى فقد كذب، وقليل من عباد الله الشكور لربه[٣٣٤].

---

(٣٣٤) انظر: فتح القدير، للشوكاني، سورة الواقعة، آية (٨٢).

١٧-فصل في النهي عن سَبّ الدهر، والريح.

الدّهر، والريح، من مخلوقات الله تبارك وتعالى، وكل مخلوقاته مربوبة له، مسخرة بأمره، لا تملك شيئاً من أمر الكون، يجهل بعض الخلق هذه الحقيقة، فإذا رأى ما يكره سب الزمان والوجود، وإذا رأى من الريح ما يؤذي، سب الريح، وما علاقة الدهر والريح وغيرهما من مخلوقات الله تعالى بما يقع للإنسان من خير وغير، ومن مخلوقات الله ومنها الرياح ما هو جند من جنود الله، تأتمر بأمره، وتتحرك بمشيئته، فالمؤمن الموحد إذا رأى ما يكره، فعليه أن يرجع إلى ربه سبحانه وتعالى، ويسأله لطفه وعفوه، وأن يصرف عنه ما يضره، ولا يطلق لسانه بما يعود عليه بالضرر.

وهذا الفعل من سنن الجاهلية، فقد كانوا يذمون الدهر ويسبونه، عند حلول الحوادث، وينسبون له ذلك، فيقولون: أبادهم الدهر، وربما قالوا: بؤساً للدهر وتباً له، وقد ذكر الله تعالى عنهم ذلك، فقال: (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) الجاثية (٢٤).

ولو تأمل العاقل لما سب الدهر، فإن سب الدهر سب لمن ليس أهلاً للسب، فالدهر مخلوق مربوب، وسبه متضمن للشرك، فإن سابّ الدهر قد يظن أنه يضر وينفع، وسبّ الدهر مع هذا إنما هو في الحقيقة سب لله تعالى، ولهذا قال النبي ﷺ: (قال الله عز وجل: يُؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر؛ أقلّب الليل والنهار)[٣٣٥] وفي لفظ (يقول: يا خيبة الدهر، فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر)[٣٣٦] .

قال الإمام أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطّابي (ت٣٨٨) رحمه الله تعالى: ومعنى (أنا الدهر) أي: أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التي تنسبونها إلى الدهر ... وإنما الدهر زمان ووقت، جُعل ظرفاً لمواقع الأمور، وكان من عادة أهل الجاهلية إذا أصابهم شدة من الزمان، أو مكروه من الأمر، أضافوه إلى الدهر وسبوه، فقالوا: بؤساً للدهر، وتباً للدهر، ونحو ذلك من القول ... فأعلَمَ الله تبارك وتعالى: أن الدهر مُحْدَث، يُقلّبه بين ليل ونهار، لا فعل له في شيء من خير وشر، لكنه ظرف للحوادث،

---

(٣٣٥) البخاري في صحيحه (٤٨٢٦) ومسلم في صحيحه (٢٢٤٦).

(٣٣٦) مسلم في صحيحه (٢٢٤٦).

ومحل لوقوعها، وأن الأمور كلها بيد الله تعالى، ومن قِبَله يكون حدوثها، وهو محدثها ومنشئها سبحانه لا شريك له[٣٣٧] .

وقال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٦٧) رحمه الله تعالى: بعد أن ذكر أن أهل الجاهلية كانوا يسبون الدهر إذا وقع بهم ما يكرهون، وأنهم إذا سبوا الدهر، وقع السب على الله تعالى؛ لأنه الفاعل على الحقيقة: أما الدهر الذي هو الزمان، فلا فعل له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى، ومعنى (فإن الله هو الدهر) أي فاعل النوازل والحوادث، وخالق الكائنات[٣٣٨].

وقال الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢) رحمه الله تعالى: وأشار الحديث إلى أن النهي عن سب الدهر، تنبيه بالأعلى على الأدنى، وأن فيه إشارة إلى ترك سب كل شيء مطلقاً، إلا ما أذن الشرع فيه[٣٣٩] .

قلت: فمن سب الدهر معتقداً أن الدهر يفعل ما يشاء، فهذا شرك أكبر حيث اعتقد قائل ذلك أن مع الله شريكاً في ملكه، ومن سبه معتقداً أن الله تعالى هو الفاعل، لكن سبه لأجل ما وقع فيه، فهذا من المحرمات، وصاحبه على خطر، ومن قال هذا يوم عصيب على وجه الخبر المجرد، ولم يقصد بذلك السب، فلا شيء في ذلك.

ومن ذلك سب الريح إذا رأى ما يكره منها، وربما لعنها بعض الجهال، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: (لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أُمرت به)[٣٤٠] .

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤) رحمه الله تعالى: ولا ينبغي لأحد أن يسب الريح؛ فإنها خلق الله عز وجل مطيع، وجند من أجناده، يجعلها رحمة ونقمة إذا شاء[٣٤١].

---

(٣٣٧) أعلام الحديث: ١٩٠٤/٣، وانظر: الترغيب والترهيب، للمنذري: ٤٨٢/٣.

(٣٣٨) شرح النووي على مسلم: ٥/٨

(٣٣٩) فتح الباري: ٦٩٢/١٠، وانظر: شرح النووي على مسلم: ٥/٨.

(٣٤٠) الترمذي في سننه (٢٢٥٢) وقال: حسن صحيح، وانظر: سنن أبي داود (٥٠٩٧) والسنن الكبرى للنسائي (١٠٦٩٩) وسنن ابن ماجه (٣٧٢٧).

(٣٤١) الأم: ٢٩٠/١، وعنه: النووي في الأذكار: ص: ١٥٣، والعمراني، في البيان: ٦٩٠/٢.

وقد جاء أن رجلاً لعن الريح عند رسول الله ﷺ فقال: (لا تلعن الريح، فإنها مأمورة، من لعن شيئاً ليس له بأهل، رجعت اللعنة عليه)[٣٤٢] .

ولا شك أن سب الريح، إنما هو في الحقيقة سب لله تعالى، كما تقدم في الكلام عن سب الدهر، فالكل مخلوق لله مدبر بأمره تعالى، فعلى المسلم أن يتقي سب مخلوقات الله تعالى، وليعلم أن سبه لا يفيد شيئاً، وإنما يعود وبال ذلك عليه، وربما جرح توحيده، ونقص إيمانه، وربما أفضى به إلى أمور أعظم من ذلك.

---

(٣٤٢) أبو داود في سننه (٤٩٠٨) والترمذي في سننه (١٩٧٨) وهو حديث ثابت.

١٨-فصل في بيان أن التوكل من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله تعالى.

التوكل على الله تعالى من أشرف العبادات، وأجل الطاعات، وكلمة (التوكل) مصدر للفعل: توكل، يتوكل، توكلاً، ومعناه في لغة العرب وكلامها يدور حول: الاعتماد على الغير في أمر من الأمور[٣٤٣].

وأما معنى التوكل في الشرع فهو: اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المصالح، ودفع المضار، من أمور الدنيا والآخرة.

ولا شك أن العبد مطلوب منه أن يكون صادقاً في توكله على الله تبارك وتعالى في تحقيق ما يُريد، مع بذل ما أمكنه من الأسباب دون اعتماد عليها، أما التوكل بدون فعل الأسباب فهذا فعل العاجزين، ومن عبارات العلماء: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، وترك الأسباب نقص في العقل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب﴾[٣٤٤] البقرة (١٩٧).

قال الإمام الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت٣٥٤) رحمه الله تعالى: الواجب على العاقل: لزوم التوكل على من تكفل بالأرزاق، إذ التوكل هو نظام الإيمان، وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر، ووجود الراحة[٣٤٥].

وقال بعض الحكماء: التوكل على ثلاث درجات: أولاها: ترك الشكاية، والثانية: الرضا، والثالثة: المحبة، فترك الشكاية درجة الصبر، والرضا: سكون القلب بما قسم الله له، وهي أرفع من الأولى، والمحبة: أن يكون حبّه لما يصنع الله به، فالأولى للزاهدين، والثانية للصادقين، والثالثة للمرسلين[٣٤٦].

ولا شك ولا ريب أن العبد كل ما قوي إيمانه وزاد، قوي توكله على مولاه، ولذا نجد الله تبارك وتعالى يذكرنا بهذه القضية فيقول سبحانه في عدد من الآيات:

---

(٣٤٣) انظر: لسان العرب: ٧٣٤/١١، تاج العروس: ٩٨/٣١.

(٣٤٤) البخاري في صحيحه (١٥٢٣).

(٣٤٥) روضة العقلاء: ١٥٣.

(٣٤٦) التوكل على الله، لابن أبي الدنيا: ٧١.

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ آل عمران (١٢٢، ١٦٠) المائدة (١١) التوبة (٥١).

ويخبرنا تعالى وتقدس بأنه يحب المتوكلين، قال سبحانه ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ آل عمران (١٥٩).

ويخبرنا سبحانه أن من توكل عليه حفظه ونصره وكفاه، فقال تعالى ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ النساء (٨١) الأحزاب (٣، ٤٨).

ويخبرنا جل وعلا: أن التوكل من صفات المؤمنين، قال تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ الأنفال (٢).

ويقول موسى ﷺ لقومه كما قص الله تعالى ذلك: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا﴾ يونس (٨٤-٨٥).

فهنيئاً ثم هنيئاً لعبد صدق في إيمانه، وقوي توكله على ربه في كل أموره.

وليعلم المسلم أن التوكل عبادة خاصة بالله تعالى، لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، فلا يصح لعبد أن يقول: توكلت عليك يا فلان، وربما وقع بعضهم في مثل هذه العبارات الجائرة، وهو يقصد توكيل غيره في القيام بحوائجه وأعماله، وفرق بين التوكل والتوكيل، وليقل: وكّلتك يا فلان؛ لأن التوكل مسألة قلبية كما تقدم تعني اعتماد القلب وتفويضه الأمر، وهذا لا يكون إلا لله تعالى، فاللهم اجعلنا من المتوكلين عليك في كل أمورنا وأحوالنا.

١٩-فصل في أن الخوف من الله تعالى، ورجاؤه عبادتان عظيمتان.

الخوف من الله تعالى، ورجاؤه، أمران متلازمان، لا يجوز أن ينفكان عن بعضهما عند المسلم الصادق، فإن الرجاء بدون خوف ينقلب إلى أمن من مكر الله، والخوف بلا رجاء يتحول إلى يأس من روح الله تعالى، والأمن واليأس محرمان.

وللخوف والرجاء فائدة عظيمة على العبد، فإن الخوف من الله تعالى يحمله على الطاعة وبذل الجهد في الاستقامة، والرجاء يحمله على التلذذ بالعبادة والطاعة والفرح بهما؛ لما يعلم من عظيم ما أعد الله لعباده الموحدين الطائعين.

ولهذا فإنه يتعين على العبد أن يعيش في هذه الحياة سائراً إلى ربه بين الخوف الرجاء، خوف بلا يأس وقنوط، ورجاء بلا أمن، يرجو رحمة ربه ويخشى عذابه.

جاء عن طاوس بن كيسان اليماني، رحمه الله تعالى، أنه قال: خَفِ الله مخافة لا يكون عندك شيء أخوف منه، وارجه رجاءً هو أشد من خوفك إياه[٣٤٧] .

قال العلامة أبو الحسن، علي بن علاء الدين، المعروف بابن أبي العز الحنفي (ت٧٩٢) رحمه الله تعالى: يجب أن يكون العبد خائفاً راجياً، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. والرجاء المحمود: رجاء رجل عمل بطاعة الله، على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنباً، ثم تاب منه إلى الله، فهو راج لمغفرته ... أما إذا كان الرجل متمادياً في التفريط والخطايا، يرجو رحمة ربه بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب[٣٤٨].

وقال أبو علي الروذباري رحمه الله تعالى: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير، وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت[٣٤٩].

---

(٣٤٧) الزهد، لهناد: ٥٣٧.

(٣٤٨) شرح الطحاوية: ٤٥٧/٢.

(٣٤٩) شرح الطحاوية، لابن أبي العز: ٤٥٧/٢.

وقال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده، فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد[٣٥٠].

وإذا تأملنا آيات القرآن العظيم، نجد أن الله تبارك وتعالى يجمع فيها بين الخوف والرجاء، ومن ذلك:

قال الله تعالى: ﴿ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ الأعراف (٥٦).

وقال تعالى: ﴿إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ الأنبياء (٩٠).

وقال تعالى: ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ الإسراء (٧٥).

وقال تعالى: ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ السجدة (١٦).

وقال تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾ الزمر (٩).

فأنت ترى كيف أن لله تبارك وتعالى في هذه الآيات، قرن بين الخوف والطمع، والرغبة والرهبة، والرجاء والخوف، والحذر والرجاء، وهذه عبارات معناهما واحد: الخوف والرجاء.

قال العلامة المقرئ مكي بن أبي طالب القيسي القرطبي(ت٤٣٧) رحمه الله تعالى: ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ أي: رغبة فيما يرجون من ثوابه، ورهبة مما يخافون من عقابه ... والدعاء في هذا الموضع هو العبادة، كما قال (وأدعو ربي) مريم (٤٨) أي: أعبد ربي[٣٥١].

وقال الإمام أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت٥٤٢) رحمه الله تعالى: والمعنى أنهم يدعون في وقت تعبدهم، وهم بحال رغبة ورجاء، ورهبة وخوف، في حال واحدة؛ لأن الرغبة والرهبة متلازمان[٣٥٢].

---

(٣٥٠) شرح الطحاوية، لابن أبي العز: ٤٥٧/٢.

(٣٥١) تفسير مكي، سورة الأنبياء، آية (٩٠).

(٣٥٢) المحرر الوجيز، سورة الأنبياء، آية (٩٠).

وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠) رحمه الله تعالى: ﴿يحذر الآخرة﴾ يحذر عذاب الآخرة ... ﴿ويرجو رحمة ربه﴾ فيجمع بين الرجاء والخوف، وما اجتمعا في قلب رجل إلا فاز[٣٥٣].

ولا بد مع الخوف من الله تعالى ورجائه من عبادة ثالثة عظيمة، وهي: حب الله تعالى.

قال سبحانه وتعالى ﴿والذين آمنوا أشدّ حباً لله﴾ البقرة (١٦٥).

قال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: ولحبهم لله وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجئون في جميع أمورهم إليه[٣٥٤].

قلت: والمؤمنون يحبون الله تعالى حباً خالصاً، ولذا كما قال الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: يطيعونه ويوحدونه امتثالاً لأمره، لا كما يفعل المشركون الذي أشركوا غير الله تعالى في العبادة، وتقربوا إلى آلهتهم التي يحبونها كما يحبون الله تعالى، على أحد التفسيرين في معنى الآية: أن المشركين يحبون آلهتهم كما يحبون الله تعالى، وهذا شرك في المحبة، ولو كانت محبتهم خالصة لله تعالى لما عبدوا معه آلهة أخرى.

---

(٣٥٣) فتح القدير، سورة الزمر، آية (٩).

(٣٥٤) تفسير ابن كثير، سورة البقرة، آية (١٦٥).

٢٠-فصل في أن الأمن من مكر الله، واليأس من روح الله محرم ولا يجوز.

المؤمن الصادق لا يأمن مكر الله تعالى وأخذه، ونقمته، ولا ييأس من رحمة الله ولطفه وعفوه، وهذا الفصل له تعلق بـ(الخوف والرجاء كما تقدم) فأمن العبد من مكر الله نتيجة رجائه الكاذب، ويأسه من روح الله ورحمته نتيجة خوفه الذي تعدى حدّه، والأمن من مكر الله، واليأس من روح الله أمران محرمان، لا يجوز لمؤمن أن يتصف بهما.

يقول الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (ت٣٢١) رحمه الله تعالى: والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام[٣٥٥].

قلت: الأمن من مكر الله تعالى، واليأس من روح الله، قد يكونان كفراً بالله تعالى، وقد يكونان ذنباً من الذنوب العظيمة.

فإذا انعدم خوف الله ورجاؤه من قلب العبد مطلقاً، فهذا كفر والعياذ بالله تعالى، ولعل هذا مراد الطحاوي رحمه الله تعالى.

وأما من اجتمع في قلبه شيء من الخوف من الله تعالى، وشيء من الأمن من مكر الله، وشيء من الرجاء، وشيء من اليأس فهذا من أهل الذنوب، وعليه أن يتخلص من ذلك، ويرجع إلى الأصل الذي قرره القرآن العظيم، كما سبق في الخوف والرجاء.

والمؤمن الموحد لا يأمن مكر الله تعالى واستدراجه لعباده، فتجده دائماً مستيقظاً منتبهاً لأمره، فإن زاغت به قدمه، عاد إلى ربه سريعاً فتاب إلى الله وأناب، مهتدياً بقول الله تعالى ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ الزمر (٥٣).

فيجب على كل عبد أن يجتهد دائماً في محاسبة نفسه، وألا يغتر بستر الله عليه إن كان مقيماً على شيء مما يُغضب الله تعالى، فقد يكون ذلك الستر المتوهم من باب قول الله تعالى ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾ الأعراف (١٨٢-١٨٣).

---

(٣٥٥) العقيدة الطحاوية، مع شرحها لابن أبي العز: ٤٥٧/٢، وهذه العقيدة التي كتبها الطحاوي رحمه الله سهلة العبارة، واضحة المعنى، وهي في مجملها موافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة، وفيها مسائل انتقدت على مؤلفها لمخالفتها لما عليه السلف، كما في تعريفه للإيمان، وفيها ألفاظ أخرى مجملة، أذاعها أهل البدع من المعطلة وغيرهم، تحتمل معاني باطلة، فينتبه لها، وقد بينها العلماء في شرحهم لهذه العقيدة.

قال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق، ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال الله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ الأنعام (٤٤-٤٥) ولهذا قال: ﴿وأملي لهم﴾ أي: وسأملي لهم، أطوّل لهم ما هم فيه ﴿إن كيدي متين﴾ أي: قوي شديد[٣٥٦].

وقد ذكر الله تعالى في كتابه العظيم الأمن من مكر الله، واليأس من روح الله تعالى على سبيل التحذير لعباده، فقال تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ الأعراف (٩٩).

وقال سبحانه: ﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ يوسف (٨٧).

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: يقول: لا يقنط من فرجه ورحمته ويقطع رجاءه منه ﴿إلا القوم الكافرون﴾ الذين يجحدون قدرته على ما شاء تكوينه[٣٥٧].

وقال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: أمرهم أن لا ييأسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء من الله الا القوم الكافرون[٣٥٨].

وهذا شأن المؤمن يحسن في الطاعة ومع هذا يخاف الله تعالى، بخلاف غيره، وقد جاء عن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنه قال: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً[٣٥٩].

ولهذا أخبرنا الله تعالى عن هؤلاء الصادقين، وأنهم مع اجتهادهم في الطاعة يخافون أن ترد عليهم أعمالهم، وأن لا يقبلها الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿والذين يُؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ المؤمنون (٦٠).

---

(٣٥٦) تفسير ابن كثير، سورة الأعراف، آية (١٨٢-١٨٣).

(٣٥٧) جامع البيان، سورة يوسف، آية (٨٧).

(٣٥٨) تفسير ابن كثير، سورة يوسف، آية (٨٧).

(٣٥٩) تفسير ابن كثير، سورة الأعراف، آية (٩٩).

أي: يعملون ما عملوا من أعمال البر ﴿وقلوبهم وجلة﴾ أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله، وأن أعمالهم لا تُقبل منهم[٣٦٠] وذلك الوجل منهم ألا تقبل أعمالهم، لعله بسبب خوفهم من أن يكونوا قد قصروا في القيام بتلك العبادات على وجهها الصحيح[٣٦١].

فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يُقبل منهم ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾[٣٦٢] .

فنسأل الله تعالى الكريم بأسمائه وصفاته أن يبصرنا بديننا، وأن يرزقنا الاستقامة عليه حتى نلقاه.

---

(٣٦٠) معالم التنزيل، سورة المؤمنون، آية (٦٠).

(٣٦١) انظر: تفسير ابن كثير، سورة المؤمنون، آية (٦٠).

(٣٦٢) الترمذي في سننه (٣١٧٥).

٢١-فصل في أن التطير والتشاؤم من المخلوقات من الشرك بالله تعالى.

كلمة التطير مأخوذة من الطير، والتشاؤم مأخوذة من الشؤم، ولما كان العرب قديماً يزجرون الطير، ثم بعد طيرانها يستبشرون أو يتشاءمون، صار كل من يتشاءم من شيء، يقال عنه تطير من كذا[٣٦٣].

قال الإمام النووي: وهي -يعني الطيرة- مصدر: تطير، طيرة ... والتطير: التشاؤم، وأصله الشيء المكروه من قول أو فعل أو مرئي. وكانوا يتطيرون بالسوانح والبوارح [٣٦٤] فينفرون الظباء والطير، فإذا أخذت ذات اليمين تبركوا به ومضوا في سفرهم وحوائجهم، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم، وتشاءموا بها، فكانت تصدهم في كثير من الأوقات عن مصالحهم[٣٦٥] .

قال الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢) رحمه الله تعالى: التطير والتشاؤم شيء واحد[٣٦٦] .

والتطير والتشاؤم من العادات التي كانت موجودة في المجتمع الجاهلي قبل بعثة النبي ﷺ وربما ورث العرب هذه الطقوس من أمم سابقة؛ لأننا نجد القرآن العظيم ذكر التطير عن السابقين، في مثل قول الله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه إلا إنما طائرهم عند الله﴾ الأعراف (١٣١).

ولا غرابة في ذلك فالضلالات يتناقلها الناس على مَرّ الأزمنة والعصور.

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرطُبي (ت٦٧١) رحمه الله تعالى: وكانوا يتطيرون أيضاً بصوت الغراب، ويتأولونه البين، ويتشاءمون برؤية السقّاء على ظهره قربة مملوءة مشدودة، ويتيمنون برؤية فارغ السقاء مفتوحة قربته، ويتشاءمون بالحمّال المُثقل بالحمل، والدابة الموقرة، ويتيمنون بالحمال الذي وضع حمله، وبالدابة يُحطّ عنها ثقلها ... وقال عكرمة: كنت عند ابن عباس فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خيرٌ خيرٌ، فقال ابن عباس: ما عند هذا لا خير ولا شر[٣٦٧].

---

(٣٦٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، سورة الأعراف، آية (١٣١).

(٣٦٤) السانح: من يمر على يمينك، والبارح من يمر على يسارك. فتح الباري: ٢٢٤/١٠.

(٣٦٥) شرح مسلم: ٣٨٢/١٤، ومثله في فتح الباري: ٢٢٤/١٠.

(٣٦٦) فتح الباري: ٢٢٤/١٠.

(٣٦٧) الجامع لأحكام القرآن، سورة الأعراف، آية (١٣١).

قلت: والتطير والتشاؤم له صور كثيرة، وتختلف من زمن إلى زمن، ومن قوم إلى قوم آخرين، وحاصل ما هنالك: أن هناك من يتشاءم ويتطير بكلام يسمعه، أو بشيء يراه، أو يتشاءم من أزمنة معينة، أو أمكنة معينة، أو من رؤية أشخاص معينين، بحيث إذا عرض له شيء من ذلك رده عن مقصده، أو عن حاجته، أو عن سفره، أو عن بيعه وشرائه، أو غير ذلك مما لا حصر له في هذا الباب.

قال الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢) رحمه الله تعالى: وليس في شيء من سنوح الطير وبروحه، ما يقتضي ما اعتقدوه، وإنما هو تكلف بتعاطي ما لا أصل له، إذ لا نطق للطير ولا تمييز ... وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله، وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير، ويتمدح بتركه، قال شاعر منهم:

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واقٍ وحاتم

فإذا الأشائم كالأيامن والأيامن كالأشائم

وقال آخر:

الزجر والطير والكهان كلهم مُضلّلُون، ودون الغيب أقفال

... وكان أكثرهم يتطيرون، ويعتمدون على ذلك ... وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين[٣٦٨] .

فلما جاء الإسلام أبطل ذلك كله ونهى عنه، ليرد الناس إلى التعلق بالله تعالى، وترك ما سواه، وليبين لهم أن المخلوقات لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً، فكيف تملك لغيرها شيئاً من ذلك، وأن الكل فقير محتاج إلى الخلاق العليم.

وقد وردت نصوص تنفي حقيقة التطير، وتبين أنه من الشرك، ومنها:

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا عدوى ولا طِيرة)[٣٦٩] .

---

(٣٦٨) فتح الباري: ٢٢٤/١٠. والبيت الأول للمرقش الأكبر، وهو شاعر جاهلي، والواق، هو الصرد، وهو طائر أبقع ضخم الرأس، والحاتم: الغراب الأسود،؛ لأنه يُحتّم عندهم بالفراق، وقيل: المشؤوم، وقيل: الأسود من كل شيء. الصحاح، للجوهري: ١٣٩٨/٥، لسان العرب: ٣٢/٤، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، سورة الأعراف، آية (١٣١).

(٣٦٩) البخاري في صحيحه (٥٧٠٧) ومسلم في صحيحه (٢٢٢٠).

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (الطيرة شرك) ولكن الله يذهبه بالتوكل[٣٧٠] ولفظة: ولكن الله يُذهبه بالتوكل، مدرجة من كلام عبد الله بن مسعود ﷺ كما جاء عن البخاري[٣٧١] .

وإذا وجد المسلم في صدره شيئاً من التطير، فليعلم أن ذلك بسبب الشيطان ووساوسه؛ ليُضعف إيمانه بالقدر، ويُضعف توكله على الله تعالى، ويُضعف تعلق قلبه بالله تبارك وتعالى، وهذه من الأمور التي يُبتلى بها المسلم.

فقد جاء في حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ وفيه أنه قال للنبي ﷺ: ومنا رجال يتطيرون. قال: (ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدّنهم)[٣٧٢] .

وطريق التخلص من التطير، بما يلي:

١-أن لا يتأثر الإنسان بما قد يجده في صدره من ذلك ولا يعلق عليه حكماً، ولا يصدنه عن مراده، كما دل على ذلك حديث معاوية بن الحكم السلمي السابق.

٢-أن يتوكل المخلوق على خالقه سبحانه وتعالى، ويفوض أمره إلى ربه، كما سبق في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

٣-أن يعمل بما رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ قال (من ردّته الطيرة عن حاجتة فقد أشرك) قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: (أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك)[٣٧٣] .

ففي هذا إعلان للتوحيد، وتفويض الأمور إلى الله تعالى، وإعلان بأن الطير وغيره مخلوق مربوب، لا يقدر على شيء.

فمن فعل ذلك فقد سلم من تبعات هذا التطير، وهذا من فضل الله على عباده أنه لا يُؤاخذهم بكل ما يخطر في أنفسهم مالم يتكلموا أو يعملوا.

---

(٣٧٠) أبو داود في سننه (٣٩١٠) والترمذي في سننه (١٧٠٦) وابن ماجه في سننه (٣٥٣٨) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣٧١) العلل الكبير: ٢٦٥/١.

(٣٧٢) مسلم في صحيحه (٥٣٧).

(٣٧٣) أحمد في المسند (٧٠٤٥) وفي سنده مقال.

والبلاء كل البلاء: أن يفعل بمقتضى ما في صدره، من هذا التطير، فمن امتثل للطيرة فقد وقع فيها، كما رُوي في حديث (إنما الطيرة ما أمضاك، أو ردّك)[٣٧٤]. ومن وقع فيها وقع في الشرك، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو السابق (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)[٣٧٥].

قال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦) رحمه الله تعالى: وفي حديث آخر (الطيرة شرك) أي: اعتقاد أنها تنفع أو تضر؛ إذا عملوا بمقتضاها، معتقدين تأثيرها، فهو شرك؛ لأنهم جعلوا لها أثراً في الفعل والإيجاد[٣٧٦].

وقال الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢) رحمه الله تعالى: وإنما جعل ذلك شركاً لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضراً فكأنهم أشركوه مع الله تعالى[٣٧٧].

فعلى المسلم الصادق في إيمانه وتوحيده ألا يلتفت إلى هذه الجاهليات، وليتوكل على رب البريات، ويعتقد أنه لن يُصيبه إلا ما كتب الله له، وأن كل شيء بقضاء وقدر، وأن الله تعالى لا يقضي لعبده قضاء إلا كان خيراً له.

---

(٣٧٤) أحمد في المسند (١٨٢٤) وفي إسناده نظر.

(٣٧٥) أبو داود في سننه (٣٩١٠) والترمذي في سننه (١٦١٤) وابن ماجه في سننه (٣٥٣٨).

(٣٧٦) شرح مسلم: ٣٨٢/١٤.

(٣٧٧) فتح الباري: ٢٢٤/١٠.

٢٢-فصل في بيان أن من اعتقد أن أحداً غير الله تعالى يعلم الغيب فقد أشرك.

عِلْمُ الغيب مما تفرد الله تعالى واستأثر به، فمن اعتقد أن مخلوقاً يعلم الغيب فقد أشرك بالله العظيم في أسمائه وصفاته؛ فإن علم الغيب مما وصف الله تبارك وتعالى به نفسه في كتابه، وأخبر عنه بذلك نبيه ﷺ ولهذا نجد القرآن الكريم يقرر هذه القضية في آيات متعددة بأساليب متنوعة، ومن هذه الآيات:

قول الله تعالى مخاطباً الملائكة: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ البقرة (٣٣).

ويأمر نبيه ﷺ أن يقول للناس، بعد أن طلبوا منه إنزال آيات كآيات الأنبياء السابقين: ﴿فقل إنما الغيب لله﴾ يونس (٢٠).

وأخبر الله تعالى عن نبيه نوح ﷺ أنه قال لقومه: ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾ هود (٣١).

وأمر رسوله محمداً ﷺ بأن يقول للناس: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾ الأنعام (٥٠).

وكان النبي ﷺ يخبر الناس بأنه لا يعلم الغيب، كما قال الله تعالى: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾ الأعراف (١٨٨).

ولما قص الله تبارك وتعالى في القرآن قصة نوح ﷺ وخبر السفينة وما حصل لأهل الأرض من الغرق، قال سبحانه: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ هود (٤٩).

ويأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يُعلم الخلق جميعاً: أنه لا يعلم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، فيقول تعالى: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يُبعثون﴾ النمل (٦٥).

وأخبر سبحانه أنه لا يطلع أحداً من خلقه على الغيب، فقال تعالى: ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ آل عمران (١٧٩) إلا إذا أراد إطلاع رسله على ما شاء من الغيب، فقال سبحانه: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) الجن (٢٦-٢٧).

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرطُبي (ت٦٧١) رحمه الله تعالى: قال العلماء رحمة الله عليهم: لما تمدّح سبحانه بعلم الغيب، واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم. وليس المنجم، ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى، وينظر في الكتب، ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول، فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه، وكذبه[٣٧٨].

قلت: هذه المسألة من الثوابت في ديننا، وهي والحمد لله من الواضحات التي لا تحتاج إلى كثرة دلائل وبينات، ولا مزيداً من الاستدلالات، ولا يخالف فيها إلا من اختل عقله وعميت بصيرته، ومع هذا فقد ضل كثير من الدجالين، فزعموا أنهم يعلمون الغيب، وأنهم يستطيعون أن يخبروا الناس بما سيحدث في مستقبل الأيام، وصدّقهم كثير من الجهال، ممن قل علمه، وضعف دينه وعقله، فضلوا، وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل. واعتقد بعض من سبق في هؤلاء الدجالين الكذبة، ما لا يجوز ان يُعتقد إلا في الله رب العالمين سبحانه، فمن أراد سلامة دينه وعقيدته، ونجاته يوم العرض الأكبر على الله تعالى فليعتقد أن ﴿الغيب لله﴾ وأن كل من ادعى من المخلوقين علم الغيب فإنه كاذب في دعواه، مكذب للقرآن العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ الشعراء (٢٢٧).

(٣٧٨) الجامع لأحكام القرآن، سورة الجن، آية (٢٧).

٢٣-فصل في العِرافة، والكِهانة، والتنجيم، وتحريم إتيان العرافين والكهنة والمنجمين وتصديقهم.

تقدم الكلام عن (علم الغيب) وأن من ادعى أنه يعلم الغيب، ومن اعتقد أن أحداً من الخلق يعلم الغيب = فهو ضال مُضلّ، خارج عن مِلّة الإسلام.

وهناك صور كثيرة لادعاء علم الغيب، شاعت في الجاهلية وذاعت، وجاء الإسلام بمحاربتها وبيان ضلال من يعتقدها، ومنها: العرافة، والكهانة، والتنجيم، وربما وُجدت أسماء أخرى لا تخرج من جهة الحقيقة والمدلول عن هذه الأسماء، وكلها تشترك في دعوى علم الغيب، وأهلها يدّعون ذلك، وربما وجدوا من يصدقهم ويأخذ بأقوالهم، وأكثر ما يقع من هؤلاء الدجاجلة مما تخبرهم به أولياؤهم من الجن، فيظن الجاهل أن هذا كشفاً أو كرامة، وأن هؤلاء من أولياء الله تعالى، وهم في الحقيقة من أولياء الشيطان، والعياذ بالله تعالى.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشيء، فنجده حقاً، قال: (تلك الكلمة الحق، يخطفها الجني، فيقذفها في أذن وليّه، ويزيد فيها مائة كذبة)[٣٧٩].

وهذا جواب من النبي ﷺ عن مصادر أخبار الكهان في الجاهلية قبل الإسلام، ومن هذا ما يخبر به بعض هؤلاء الدجالين مما غاب عنهم من أحوال الناس، فيأتون بالخبر على وجهه، ويظن الجاهل المستمع لهم أنهم يعلمون الغيب، وإنما ذلك بسبب تواصل الكاهن مع قرينه من الجن، وهذا القرين له تواصل مع جِنٍّ آخرين، فيُعلم الكاهن بالخبر، ويلقيه الكاهن على الناس، والشياطين لا تتعاون مع إنسي إلا إذا تولاهم، وقد اعترف كثير ممن تاب إلى الله تعالى من هؤلاء الكهان والعرافين والسحرة بذلك، وأنهم يتواصلون مع الجن، والجن تخدمهم بما يريدون، وذلك بعد أن يكفروا بالله تعالى، ويطيعوا الشياطين فيما تطلب منهم، وصدق الله إذ يقول ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾ الأنعام (١٢١).

قال الإمام أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطّابي (ت٣٨٨) رحمه الله تعالى: الكاهن هو الذي يدّعي مطالعة علم الغيب، ويخبر الناس عن الكوائن، وكان في العرب كهنة يدّعون أنهم يعرفون كثيراً من الأمور، فمنهم من كان يزعم أن له رؤيا من الجن، وتابعة تُلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يدعي أنه يستدرك الأمور بفهم أعطيه، وكان منهم من يُسمى عرافاً، وهو الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل

---

(٣٧٩) البخاري في صحيحه (٣٢١٠) ومسلم في صحيحه (٢٢٢٨).

بها على مواقعها، كالشيء يُسرق فيعرف المظنون به السرقة، وتُتهم المرأة بالزّنْية فيعرف من صاحبها، ونحو ذلك من الأمور، ومنهم من كان يُسمّي المنجم كاهناً[٣٨٠].

وقال الإمام أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطّابي (ت٣٨٨) رحمه الله تعالى: أيضاً: والفرق بين الكاهن والعراف: أن الكاهن: إنما يتعاطى الأخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار، والعراف: هو الذي يتعاطى معرفة الشيء المسروق، ومكان الضالة ونحوها من الأمور[٣٨١].

قال العلامة أحمد بن غانم النفراوي المالكي (ت١١٢٦) رحمه الله تعالى: لا يجوز لأحد تصديق الكاهن، وهو الذي يُخبر بما يقع في المستقبل، ولا العراف الذي يُخبر بما وقع كإخراج المخبآت، وكتعيين السارق، لأن ذلك من دعوى علم الغيب، ولا يعلمه إلا الله[٣٨٢].

وأما التنجيم: وهو نوع من الكهانة، مأخوذ من النّجم، وهو: أن يقوم المنجم بربط ما يقع في الأرض من الحوادث، أو ما سيقع، بالنجوم، بحركاتها وطلوعها، وغروبها، واقترانها وافتراقها. وما أشبه ذلك[٣٨٣] .

وهذه النجوم مخلوقة مربوبة، شأنها شأن غيرها من المخلوقات، لا تملك من أمر هذا الكون شيئاً، وليس لها فيه أي تصرف، خلقها الله تعالى لحكم عظيمة.

جاء عن قتادة رحمه الله تعالى، قال: إن الله تعالى إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يُهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين،؛ فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد أخطأ حظه، وقال رأيه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن أناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا. ولعمري؛ ما من نجم إلا ويولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير، والحسن والدميم، وما عِلمُ

---

(٣٨٠) معالم السنن: ٤/٢٢٨.

(٣٨١) معالم السنن: ٣/١٠٤.

(٣٨٢) الفواكه الدواني: ٢/٣٤٤.

(٣٨٣) انظر: معالم السنن، للخطابي: ٥/٣٧١، شرح السنة، للبغوي: ١٢/ ١٨٣.

هذه النجوم، وهذه الدابة، وهذا الطائر بشيء من الغيب، وقضى الله تعالى أنه ﴿لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾ [٣٨٤] النمل (٦٥).

والتنجيم والتعلق بالنجوم من عمل الجاهلية، كما أخبر بذلك النبي ﷺ فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة)[٣٨٥].

وأحوال الناس فيما يتعلق بالنجوم والتعلق بها، أنواع وأشكال:

فمنهم من عبد النجوم والكواكب[٣٨٦] كما قال الله تعالى عن أهل سبأ ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ النمل (٢٤) وجاء أن خزاعة، وغيرها، عبدت (الشعرى) سن ذلك لهم أبو كبشة رجل من أشرافهم، وطائفة من قبيلة تميم عبدوا (الدبران) كما عبدت بعض طيء (الثريا) وبعض قبائل ربيعة عبدوا (المرزم) وعبدت كنانة (القمر) وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير العالم السفلي ...الخ ما هنالك من الضلالات والجهالات[٣٨٧].

ومنهم من ينسب إليها النحوس والسعود الواقع على الناس في الأرض، كما قال عبيد بن الأبرص السعدي الشاعر الجاهلي:

فالشمس طالعة وليل كاسف والنجم يجري أنحساً وسُعوداً[٣٨٨]

ومنهم من يستسقي بها، وينسب نزول المطر إليها، وكان ذلك منتشراً بينهم، فكانوا ينسبون المطر للنجم الطالع، وقيل: للساقط[٣٨٩] حتى قال قائلهم:

---

(٣٨٤) جاء هذا الأثر عن قتادة مختصراً ومطولا، وقد رواه عبد الرزاق في تفسيره، سورة النحل، آية (١٦) وعبد بن حميد في تفسيره، كما في تغلق التعليق: ٤٨٩/٣، وابن جرير في جامع البيان، سورة النحل، آية (١٦) وأبو الشيخ في كتاب العظمة (٧٠٢) والخطيب البغدادي في، القول في علم النجوم: ١٨٥، وعلقه البخاري في صحيحه، قال: فصل في النجوم، وذكره، الحديث (٣٠٢٦) ووصله ابن حجر في تغليق التعليق: ٤٨٩/٣ من طريق الخطيب البغدادي. وانظر: الدر المنثور، للسيوطي سورة النحل، آية (١٦).

(٣٨٥) مسلم في صحيحه (٩٣٤).

(٣٨٦) انظر كتاب: الشعراء الحنفاء، أحمد جمال العمري، التنجيم والمنجمون، د. عبد المجيد بن سالم المشعبي.

(٣٨٧) انظر: بلوغ الأرب: ٢٣٩/٢.

(٣٨٨) بلوغ الأرب: ٢٨١/٢.

(٣٨٩) الأنواء في مواسم العرب: ص:٩.

والكوكب النحس يسقي الأرض أحيانا[٣٩٠].

ولم يكن أهل الجاهلية يعتقدون أن الكوكب هو الخالق للمطر، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر، كما قال تعالى ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله﴾ العنكبوت (٦٣) وقد تقدم الحديث في الاستسقاء بالنجوم، ولذا غلظ النبي ﷺ ونهى عن القول بقول الجاهلية فيما يتعلق بذلك، كما جاء في حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)[٣٩١] .

فدل هذا الحديث على أن من نسب نزول المطر إلى النجوم، معتقداً أنها تؤثر بذاتها في خلق المطر، أو إنزاله، فقد كفر بالله العظيم.

ومنهم: من يخبر بالمستقبل زاعماً أنه يستدل على ذلك بطلوع النجم.

يقول العلامة محمد أمين، الشهير بابن عابدين (ت١٢٥٢) رحمه الله تعالى: الكاهن من يدعي معرفة الغيب بأسباب، وهي مختلفة، فلذا انقسم إلى أنواع متعددة، كالعرّاف، والرمّال، والمُنجّم، وهو الذي يُخبر عن المستقبل بطلوع النجم وغروبه، والذي يضرب بالحصى، والذي يدعي أن له صالحاً من الجن يخبره عما سيكون، والكل مذموم شرعاً، محكوم عليهم، وعلى مصدقهم بالكفر، وفي (البزازية) يكفر بادعاء علم الغيب، وبإتيان الكهان وتصديقهم، وفي (التتارخانية) يكفر بقوله: أنا أعلم المسروقات، أو أنا أخبر عن إخبار الجن إياي[٣٩٢].

وقد جاء أن مسافر بن عوف قال لعلي رضي الله عنه حين انصرف من الأنبار إلى أهل النهروان: يا أمير المؤمنين، لا تسر في هذه الساعة، وسر في ثلاث ساعات يمضين من النهار. قال علي رضي الله عنه: ولِمَ؟ قال: لإنك لو سرت في هذه الساعة أصابك أنت وأصحابك بلاء وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت، وأصبت ما طلبت.

---

(٣٩٠) نهاية الأرب: ١/٦٤.

(٣٩١) البخاري في صحيحه (١٠٣٨).

(٣٩٢) حاشية ابن عابدين: ٤/٢٤٢.

فقال علي ﷺ: ما كان لمحمد ﷺ منجم، ولا لنا من بعده، هل تعلم ما في بطن فرسي هذه؟ قال: إن حسبت علمت.

قال: من صدقك بهذا القول كذّب القرآن، قال الله تعالى ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ ما كان محمد ﷺ يدعي علم ما ادعيت علمه، تزعم أنك تهدي إلى الساعة التي تصيب السوء من سار فيها؟ قال: نعم.

قال: من صدقك بهذا القول استغنى عن الله في صرف المكروه عنه، وينبغي للمقيم بأمرك أن يُولِيك الحمد دون الله ربه، لأنك أنت بزعمك هديته إلى الساعة التي تنجي من السوء من سافر فيها، فمن صدقك بهذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله أنداداً أو ضداً، اللهم لا طائر إلا طائرك، ولا خير الا خيرك، ولا إله غيرك، نكذبك ونخالفك، ونسير في الساعة التي تنهانا عنها، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أيها الناس إياكم وتعلم هذه النجوم إلا ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، إنما المنجم كالكافر، والكافر في النار، والمنجم كالساحر والساحر كالكافر، والكافر في النار . والله لإن بلغني أنك تنظر في النجوم، وتعمل بها لأخلدنك في الحبس ما بقيتُ وبقيتَ، ولأحرمنك العطاء ما كان لي سلطان، ثم سار في الساعة التي نهاه عنها، فلقي أهل النهروان فقتلهم، ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها، فظفرنا وظهرنا، لقال قائل: سار في الساعة التي أمر بها المنجم، ما كان لمحمد ﷺ منجم، ولا لنا بعده، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان، أيها الناس توكلوا على الله تعالى وثقوا به، فإنه يكفي ممّن سواه[٣٩٣].

ومنهم من يُعظّم الشمس والقمر، ويعتقد أن الكسوف والخسوف لا يحدثان إلا لموت عظيم أو لحياته، فبين النبي ﷺ أن هذا الاعتقاد باطل، وأن الشمس والقمر مخلوقان مربوبان مسخران، فقال: (إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله)[٣٩٤] .

وكان بعضهم يعتقد في الشهب التي ترمى بها الشياطين، أنها من أجل ولادة رجل عظيم أو موت رجل عظيم، فقد روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً من الأنصار أخبره، أنهم كانوا جلوساً مع النبي ﷺ إذ رُمي بنجم فاستنار، فقال لهم النبي ﷺ: (ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رُمي بمثل هذا ؟) قالوا: الله ورسوله

(٣٩٣) رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده، كما في بغية الباحث (٥٣٩) وأبو الشيخ في العظمة (٧٠٧) وانظر: القول في علم النجوم، للخطيب البغدادي: ١٨١.

(٣٩٤) البخاري في صحيحه (١٠٤٣) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

أعلم، كنا نقول: وُلد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم...[٣٩٥] ثم بين لهم النبي ﷺ الحكمة من الرمي بهذه الشهب وأنها رجوم للشياطين.

ومنهم من يتعلق بالأبراج، وهي اثنا عشر برجاً، وأسماؤها عند اليونايين، والمصريين والعرب: (الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت).

وأسماؤها عند الصينيين: (الفأر، والقط، والحصان، والديك، والجاموس، والتنين، والماعز، والكلب، والنمر، والثعبان، والقرد، والخنزير).

وربما ظن بعضهم أن هذ البروج، أو بعضها، تؤثر في هذا العالم، وفي طباع الناس وأخلاقهم، إذ إنهم جعلوا طبائع المولود تابعة لطبيعة الحيوان الذي سُمّي البرج الذي وُلد فيه باسمه، كما قال أبو معشر وهو يصف مواليد برج الحمل: المولود بهذا البرج يكون رجلاً أسمر اللون، طويل القامة، كبير الرأس، صعب المراس، سريع الغضب، قريب الرضاء، سريع الانتقال من مكان إلى مكان، يقول الحق، ويكره الباطل، لا يعمل إلا برأيه ... الخ ما هنالك من الدجل والكذب والترهات[٣٩٦].

ولا زال هذا البلاء موجوداً إلى يوم الناس هذا، وكثير من الناس يتعلق به، فتراه في زواجه يسأن عن برج زوجته، وكذلك المرأة تفعل هذا، وربما نُشر في بعض وسائل النشر مثل هذه الترهات، تحت عنوان: اعرف برجك، وفي بعض الإذاعات المسموعة والمرئية يُمارَس مثل هذا الدجل، والجهال والذين لا توحيد لهم ينخدعون بمثل هذه الأباطيل، فليحذر المسلم من التعلق بمخلوق كائناً من كان، وليخلص عبادته وتعلقه بربه سبحانه الذي بيده كل شيء.

ومن أجل هذا كله جاء عن النبي ﷺ التحذير الشديد من إتيان الكهان والعرافين والدجالين، وتصديق المنجمين، فعن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)[٣٩٧].

وعن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال (من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة)[٣٩٨].

---

(٣٩٥) مسلم في صحيحه (٢٢٢٩).

(٣٩٦) انظر: التنجيم والمنجمون، د. عبد المجيد بن سالم المشعبي: ٢١٥.

(٣٩٧) أبو داود في سننه (٣٩٠٤) والترمذي في سننه (١٣٥) وابن ماجه في سننه (٦٣٩) وهو صحيح.

(٣٩٨) مسلم في صحيحه (٢٢٣٠).

وجاء عنه ﷺ أيضاً: التحذير من التنجيم، والتعلق بالنجوم، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (من اقتبس علماً من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد)[٣٩٩] .

ومعنى هذا الحديث: أن من تعلم شيئاً مما يدعيه الجهلة والدجالون في النجوم فقد تعلم شيئاً من السحر، وكلما زاد في تعلم ذاك زاد في تعلم السحر، ووجه المشابهة لما بين التنجيم والسحر من الدجل والشعوذة والتمويهات وادعاء علم الغيب، وتكلف الإنسان ما ليس عليه دليل ولا برهان صحيح، فكما أن الساحر يدخل المسحور في خيالات وتصورات لا حقيقة لها في الواقع، كما يحصل أن بعض المسحورين يخيل إليه أنه فعل الشيء وهو لم يفعله، وهكذا، فكذلك هؤلاء المنجمون يدخلون الناس في أمور وتخيلات وظنون وأوهام لا حقيقة لها[٤٠٠] .

---

(٣٩٩) أبو داود في سننه (٣٩٠٥) وابن ماجه في سننه (٣٧٢٦) وإسناده صحيح.

(٤٠٠) انظر: عون المعبود: ٣١٩/١٠.

الخاتمة، وفيها ثلاثة فصول

١-فصل في الشفاعة وأنها ملك لله تعالى.

لفظة الشفاعة: من الألفاظ المعروفة، والمشهورة على الألسنة، ولا غرابة في ذلك، فهي لفظة شرعية جاءت في كتاب الله تعالى وفي حديث النبي ﷺ وعلى هذا فلا بد لنا من معرفة معنى هذه الكلمة عند علماء الشريعة، فنقول:

المراد بالشفاعة عند علماء الشريعة: طلب النبي ﷺ أو غيره، من الله تعالى، حصول منفعة لأحد من الخلق في الدار الآخرة، أو دفع مضرة.

قال المفسر محمد أبو السعود أفندي (ت٩٨٢) رحمه الله تعالى: الشفاعة: هي التوسط بالقول في وصول شخص إلى منفعة من المنافع الدنيوية أو الأخروية، أو خَلاصه من مَضرّة[٤٠١].

وبعد استقراء القرآن الكريم تبين لنا: أن الشفاعة ملك لله تبارك وتعالى، كما قال سبحانه: ﴿قل لله الشفاعة جميعا﴾ الزمر (٤٤).

وقال العلامة محمد بن أحمد ابن جُزيّ الكلبي الغرناطي (ت٧٤١) رحمه الله تعالى: أي هو مالكها، فلا يشفع أحد إليه إلا بإذنه، وفي هذا ردّ على الكفار في قولهم: إن الأصنام تشفع لنا[٤٠٢].

وقال العلامة جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي (ت١٣٣٢) رحمه الله تعالى: أي: هو مالكها، لا يستطيع أحد شفاعة مّا؛ إلا أن يكون المشفوع له مرتضى، والشفيع مأذوناً له[٤٠٣].

وقد دلّ القرآن الكريم أيضاً على: أنه لا أحد يستطيع أن يشفع لأحد عند الله تعالى، إلا بشرطين:

الشرط الأول: الإذن من الله تعالى للشافع أن يشفع.

قال الله تعالى: ﴿من ذا لذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ البقرة (٢٥٥).

---

(٤٠١) إرشاد العقل السليم: ٢/ ٢١٠.

(٤٠٢) التسهيل لعلوم التنزيل، سورة الزمر، آية (٤٤).

(٤٠٣) محاسن التأويل، سورة الزمر، آية (٤٤).

وهذه الآية نص صريح ظاهر، في أن الشفاعة لا تُقبل من أحد، حتى يأذن الله تعالى له بالشفاعة.

وقد جاء في حديث الشفاعة المشهور، وفيه سجود النبي ﷺ وفيه (يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسَل تُعطه، واشفع تُشفّع)[٤٠٤].

والشرط الثاني: الرضى عن الشافع، والمشفوع له، كما قال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ الأنبياء (٢٨).

قال ابن جرير: يقول: ولا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه[٤٠٥].

وقد جمع الله تعالى بين هذين الشرطين في آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ النجم (٢٦).

وقد بينت هذه الآية وغيرها، أن الله تعالى لا يأذن لشافع أن يشفع؛ إلا إذا كان من أهل التوحيد، وهو سبحانه لا يرضى إلا عن أهل التوحيد.

قال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦) رحمه الله تعالى: لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله في الشفاعة لمن يشاء، ويرضى، أي: من أهل التوحيد[٤٠٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: (من قال لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه)[٤٠٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ طه (١٠٩).

---

(٤٠٤) البخاري في صحيحه (٧٥١٠) ومسلم في صحيحه (١٩٣).

(٤٠٥) جامع البيان، سورة الأنبياء، آية (٢٨).

(٤٠٦) معالم التنزيل، سورة النجم، آية (٢٦).

(٤٠٧) البخاري في صحيحه (٩٩).

قال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦) رحمه الله تعالى: يعني: لا تنفع الشفاعة أحداً من الناس، إلا من أذن له الله أن يشفع، ورضي قوله. قال ابن عباس: يعني قال: لا إله إلا الله. فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن(٤٠٨).

وقال الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت٥٩٧) رحمه الله تعالى: يعني: لا تنفع أحداً، إلا شفاعة من أَذنَ أن يشفع له، ورضي للمشفوع فيه قولاً، وهو الذي كان في الدنيا من أهل لا إله إلا الله(٤٠٩).

والشفاعة الثابتة للمؤمنين يوم القيامة التي وردت بها الأدلة الصحيحة، أنواع: منها ما هو خاص بالنبي ﷺ ومنها ما يكون له وللأنبياء صلى الله وسلم عليهم أجمعين، ومنها ما يكون لخواص المؤمنين، وهذه الأنواع، هي:

١-الشفاعة العظمى لفصل القضاء بين العباد، وهي المعبر عنها بالمقام المحمود، حيث يشفع النبي ﷺ عند ربه بعد أن يأذن الله تعالى له بذلك.

٢-الشفاعة في دخول المؤمنين الجنة.

٣-الشفاعة لقوم أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

٤-شفاعة النبي صلى الله لعمه أبي طالب بأن يخفف عنه العذاب، فهو أخف أهل النار عذاباً بسبب شفاعة النبي ﷺ له.

٥-شفاعة النبي ﷺ لمن يموت بالمدينة.

٦-الشفاعة في رفع درجات أهل الجنة.

٧-الشفاعة لأهل الكبائر.

٨-الشفاعة لقوم استحقوا النار ألا يدخلوها(٤١٠).

وأما الشفاعة التي لا تنفع صاحبها، ولا يقبلها الله تعالى يوم القيامة، بسبب أن الله تعالى لم يرض عن أهلها، فهي:

---

(٤٠٨) معالم التنزيل، سورة طه، آية (١٠٩).

(٤٠٩) زاد المسير، سورة طه، آية (١٠٩).

(٤١٠) انظر: النهاية في الفتن والملاحم، لابن كثير: ٢/٢٠٢.

الشفاعة لمن مات على الكفر والشرك، والعياذ بالله تعالى، فهؤلاء قد بين الله تعالى، أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وما لهم من شافعين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ المدثر (٤٨) وقال سبحانه: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ غافر (١٨) وقال تعالى عنهم ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ الشعراء (١٠٠-١٠١).

وبهذا يتبين ضلال المشركين كما تقدم حينما زعموا أن معبوداتهم تشفع لهم عند الله. وكيف يشفع عند الله تعالى من لم يُؤذن له، وكيف تقبل الشفاعة في من لم يَكُ من المؤمنين.

ويتبين أيضاً غلط من يطلب الشفاعة من المخلوقين، كما نسمع على ألسنة العامة من يقول: الشفاعة يا محمد، أو يا فلان وينادي صالحا بزعمه، أو غيره، فانظر كيف يطلبون الشفاعة ممن لا يملكها، ولا يتقدم لها إلا بعد الإذن من الله تعالى. وصواب القول أن يقول العبد الموحد: اللهم شفع في نبيك محمداً ﷺ فيتوجه بطلب الشفاعة ممن يملكها، وهو الله سبحانه وتعالى.

٢-فصل في بيان أن التوسل بالمخلوقين من البدع المنكرة.

التوسل، هو التقرب إلى المطلوب، والتوصل إليه برغبة[٤١١].

والوسيلة هي: الشيء الذي يُتوصل به إلى تحصيل المقصود[٤١٢].

والوسيلة في النصوص الشرعية، هي: العمل الصالح بإجماع العلماء، ولا وسيلة تقرب العبد إلى ربه سبحانه وتعالى إلا باتباع رسوله ﷺ[٤١٣].

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلم تفلحون﴾ المائدة (٣٥).

قال مجاهد، وعطاء، وأبو وائل، والحسن، وقتادة رحمهم الله تعالى: أي: تقرّبوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه[٤١٤].

وقال الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤) رحمه الله تعالى: وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه... والوسيلة هي التي يُتوصل بها إلى تحصيل المقصود[٤١٥].

قال الإمام محمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣) رحمه الله تعالى: اعلم أن جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة هنا هو: القربة إلى الله تعالى، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، على وفق ما جاء به محمد ﷺ بإخلاص في ذلك لله تعالى؛ لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى رضى الله تعالى، ونيل ما عنده من خير الدنيا والآخرة.

ثم قال رحمه الله تعالى: التحقيق في معنى الوسيلة، هو ما ذهب إليه عامة العلماء من أنها: التقرب إلى الله تعالى بالإخلاص له في العبادة، على وفق ما جاء به الرسول ﷺ ... وبهذا التحقيق تعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف، من أن المراد بالوسيلة في الآية: الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه، أنه تخبط في الجهل والعمى، وضلال مبين، وتلاعب بكتاب الله تعالى، واتخاذ

---

(٤١١) معجم مقاييس اللغة: ٦/١١٠، لسان العرب: ١١/٧٢٤.

(٤١٢) تفسير ابن كثير، سورة المائدة، آية (٣٥).

(٤١٣) انظر: أضواء البيان، سورة المائدة، آية (٣٥).

(٤١٤) جامع البيان، سورة المائدة، آية (٣٥) تفسير ابن كثير، سورة المائدة، آية (٣٥).

(٤١٥) تفسير ابن كثير، سورة المائدة، آية (٣٥).

الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار ... فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الطريق الموصلة إلى رضى الله وجنته ورحمته هي: اتباع الرسول ﷺ ومن حاد عن ذلك فقد ضل سواء السبيل.

وهذا الذي فسرنا به الوسيلة هنا هو معناها أيضاً في قوله تعالى ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾ الإسراء (٥٧)[٤١٦].

ومعنى هذه الآية: أي أولئك الذين يزعم المشركون أنها آلهة من دون الله، من الملائكة والأنبياء والصالحين من الإنس والجن: هم أنفسهم يطلبون التقرب إلى الله بطاعته، بفعل والواجبات والمستحبات، وترك المنهيات، ويدعونه، ويستعيذون به وحده[٤١٧].

والتوسل منه ما هو مشروع، ومنه ما هو ممنوع.

فأما المشروع، فهو: التوسل إلى الله تعالى بما دَلّ الكتاب والسنة على مشروعية التوسل به، وهو:

١-التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته، وهذا متفق عليه بين العلماء[٤١٨] قال الله تعالى يرشد خلقه إلى ذلك: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ الأعراف (١٨٠).

والمعنى: ادعوا الله تعالى، متوسلين إليه بأسمائه الحسنى، كأن تقول: اللهم إنك غفور رحيم، فاغفر لي وارحمني، وهكذا[٤١٩].

قال العلامة برهان الدين بن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥) رحمه الله تعالى: أي فصفوه، وسمُّوه، واسألوه بها[٤٢٠].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (ما أصاب أحداً قط هم، ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحداً من

---

(٤١٦) أضواء البيان، سورة المائدة، آية (٣٥).

(٤١٧) انظر: تفسير مكي، البسيط للواحدي، تفسير السمعاني، سورة الإسراء، آية (٣٩٥).

(٤١٨) الموسوعة الفقهية الكويتية: ١٥١/١٤.

(٤١٩) انظر: العذب النمير: ٣٥٢/٤.

(٤٢٠) نظم الدرر، سورة الأعراف، آية (١٨٠).

خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عند، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ... الحديث)[٤٢١] .

وقد ذكروا أن أفضل ما يَتوسل به العبد عند سؤال ربه عز وجل: التوسل إليه وسؤاله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، ولا شك أن أسماء الله تعالى وصفاته عظيمة، ولهذا أمر النبي ﷺ المخلوق إذا سأله مخلوق آخر باسم من أسماء الله تعالى فليُجبه، ولا يمتنع من الإجابة إلا لحرج بالغ في السؤال، فقال ﷺ: (ومن سأل بالله فأعطوه)[٤٢٢] .

وأرشدنا أيضاً ﷺ ألا نسأل بوجه الله تعالى إلا شيئاً عظيماً، فقال: (لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة)[٤٢٣] .

قال العلامة شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت٧٤٣) رحمه الله تعالى: هذا يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون معناه: لا تسألوا الناس شيئاً بوجه الله، مثل أن تقولوا لأحد: يا فلان أعطني شيئاً بوجه الله، أو بالله؛ فإن اسم الله تعالى أعظم من أن يُسأل به شيء من متاع الدنيا، بل اسألوا به الجنة. والثاني: لا تسألوا الله شيئاً من متاع الدنيا، بل سلوا الله رضاه والجنة، فإن متاع الدنيا لا قدر له[٤٢٤].

٢-التوسل بالأعمال الصالحة، كأن تقول: اللهم بإيماني بك ارحمني، اللهم بمحبتي لك وفقني، وهكذا، سواء كانت الأعمال من أعمال القلوب، أو من أعمال الجوارح.

وقد دل القرآن الكريم والسنة الصحيحة على مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة التي يعملها العبد متقرباً بها إلى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم﴾ الفاتحة (٥-٦).

وقال سبحانه وتعالى ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ آل عمران (٥٣).

---

(٤٢١) أحمد في المسند (٣٧١٢) وهو حديث ثابت.

(٤٢٢) أبو داود في سننه (١٦٧٢) وصححه النووي في المجموع: ٢٥٤/٦.

(٤٢٣) أبو داود في سننه (١٦٧١).

(٤٢٤) شرح المشكاة: ١٥٦٦/٥.

قال العلامة محمود شكري الألوسي (ت١٣٤٢) رحمه الله تعالى: عَرْضٌ لحالهم عليه... استمطاراً لسحائب إجابة دعائهم[٤٢٥] .

وفي حديث الثلاثة الذين آووا إلى غار، فانحدرت صخرة فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فتوسل أحدهم ببره لوالديه، فانفرجت الصخرة شيئاً، لكنهم لا يستطيعون الخروج، وتوسل الثاني بعفته عن الزنا بابنة عمه، فانفرجت الصخرة شيئاً لكنهم لا يستطيعون الخروج، وتوسل الثالث بحفظه وتنمية أجرة أجيره الذي ذهب ولم يأخذ أجره، ثم عاد إليه بعد زمن ودفع له أجره ونماءه، ففرج الله عنهم الصخرة فخرجوا يمشون، وكان كل واحد منهم يذكر عمله ويقول: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه[٤٢٦].

ومعنى التوسل في هذا الحديث ظاهر جداً.

٣-التوسل إلى الله تعالى بدعاء الصادقين والصالحين في حياتهم، كأن يطلب من صالحٍ حيٍ أن يدعو له.

قال الله تعالى: ﴿قالوا يا أبنا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ يوسف (٩٧).

فإخوة يوسف طلبوا من أبيهم ﷺ أن يستغفر لهم، كما هو ظاهر من معنى الآية.

﴿ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ النساء (٦٤).

والمعنى استغفروا ربهم في مجلس رسول الله ﷺ وطلب الرسول ﷺ من ربه أن يغفر لهم، والنبي ﷺ مستجاب الدعوة.

قال الطبري: جاؤوك تائبين منيبين، فسألوا الله أن يصفح لهم عن عقوبة ذنبهم بتغطيته عليهم، وسأل لهم اللهَ رسولهُ ﷺ مثل ذلك، وذلك هو معنى قوله ﴿فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول﴾[٤٢٧] .

---

(٤٢٥) روح المعاني، سورة آل عمران، آية (٥٣).

(٤٢٦) انظر الحديث في صحيح البخاري (٢٢٧٢).

(٤٢٧) جامع البيان، سورة النساء، آية (٦٤).

وقد ضلّ قوم في فهم هذه الآية، وظنوا أن المراد الذهاب إلى قبر النبي ﷺ ومناشدته أن يستغفر لهم، وهذا من الجهل العظيم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قَحَطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيُسقون(٤٢٨).

وقد دلت السنة على أن الناس كانوا إذا حُبس المطر عنهم وأصابهم القحط، خرج بهم النبي ﷺ يصلي بهم صلاة الاستسقاء ويدعو لهم، ويأمرهم بالدعاء، فيُسقون بفضل الله ورحمته، وربما دعا على المنبر فأنزل الله المطر.

وبعد موت النبي ﷺ وفي عهد عمر رضي الله عنه أصابهم قحط، فقال عمر رضي الله عنه كلامه هذا، ومعناه أن النبي ﷺ كان يدعو لنا، ونجعل دعاءه وسيلتنا إليك، لما له من فضل عندك، وكنت تسقينا بدعائه، وإننا اليوم نتوسل إليك بدعاء عم نبينا ﷺ فأنزل علينا المطر يا الله.

وقد فهم بعضهم أن عمر رضي الله عنه كان يتوسل بجاه العباس وحقه عند الله، لا بدعائه، ولو كان ظنهم هذا صحيحاً لكان عمر رضي الله عنه من المخطئين في ذلك، إذ كيف يترك التوسل بجاه النبي ﷺ وحقه، وحقه وجاهه باق بعد موته ﷺ ويعدل إلى العباس رضي الله عنه أفلا يعقلون.

وهذا هو الذي فهمه السلف الصالح، ولا نعرف أحداً منهم كان يتوسل إلى الله تعالى بمخلوق، أو بجاه أحد، أو بحق شيء.

وقد جاء عن سُليم بن عامر الخبائري: أن السماء قحطت فخرج معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وأهل دمشق، يستسقون، فلما قعد معاوية على المنبر، قال: أين يزيد بن الأسود الجُرشي؟ فناداه الناس، فأقبل يتخطى الناس، فأمره معاوية، فصعد المنبر، فقعد عند رجليه، فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بيزيد بن الأسود الجرشي، يا يزيد ارفع يديك إلى الله، فرفع يزيد يديه، ورفع الناس أيديهم، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في الغرب كأنها ترس، وهبت لها ريح، فسُقينا حتى كاد الناس ألا يبلغوا منازلهم(٤٢٩).

---

(٤٢٨) البخاري في صحيحه (٣٧١٠).

(٤٢٩) ابن سعد في الطبقات الكبرى (٩٦٣٢) والفسوي في المعرفة والتاريخ: ٣٨١/٢، وابن عساكر في تاريخ دمشق: ١١٢/٦٥، واللفظ له.

قال العلامة أبو الحسن، علي بن علاء الدين، المعروف بابن أبي العز الحنفي (ت٧٩٢) رحمه الله تعالى: وهو يتكلم عن قولهم: بحق فلان: فإن فلاناً وإن كان له حق على الله بوعده الصادق، فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل، فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعائي، وأي مناسبة في هذا، وأي ملازمة؟ وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء، وقد قال تعالى ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ الأعراف (٥٥) وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة ... والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السنة والاتباع، لا على الهوى والابتداع[٤٣٠].

وأما التوسل الممنوع، فهو: التوسل إلى الله تعالى بما لم يرد له أصل في الكتاب ولا في السنة، وذلك أن التوسل من الدعاء، والدعاء من العبادات، والعبادة مقصورة على الاتباع.

ومن هذه التوسلات الممنوعة: التوسل إلى الله بالأحجار، والأشجار، وبذوات الأشخاص، وبحق فلان، وجاه فلان، وحق هذا اليوم، مثل أن يقول: أسألك يا الله بنبيك، أو بعبدك الصالح فلان، أو بحق فلان، أبو بحق هذا اليوم، أو بجاه فلان، أو بجاه هذا اليوم، ونحو ذلك، فلا نعلم في هذه التوسلات دليلاً صحيحاً يدل على مشروعيتها، أو جوازها.

فعلى المسلم أن يلتزم في توسله بما جاء في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ وأن يترك التوسل بغير ذلك، ففي الوارد ما يغني عن الاجتهادات والتكلّفات، وذلك أسلم لدين العبد، وأصفى لتوحيده، والله المستعان.

---

(٤٣٠) شرح الطحاوية: ١/٢٩٦، وانظر: حاشية ابن عابدين: ٦/٣٩٥-٣٩٧.

٣-فصل في بيان التبرك، وما يشرع منه، وما لا يُشرع.

ربنا سبحانه وتعالى، تبارك وتعاظم، وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل، والبر الكثير فيه، فكل بركة في الكون من آثار رحمته وجوده وإحسانه فـ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ الأعراف (٥٤) ﴿وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون﴾ الزخرف (٨٥) و﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ الفرقان (١).

ومن أراد البركة فليلتمسها وليطلبها منه سبحانه وتعالى، فـ(البركة من الله)[٤٣١] كما أخبرنا النبي ﷺ بذلك، وطلبها منه سبحانه وتعالى عبادة، يتعبد العبد بها ربه تعالى وتقدس.

والتبرك كما قال العلماء، هو: التماس البركة، والتبرك بالشيء: طلب البركة بواسطته، والبركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والتبريك: الدعاء للإنسان وغيره بالبركة[٤٣٢] .

وعلى هذا فمعنى التبرك ظاهر جداً، وهو: أن يلتمس العبد البركة من الشيء.

والسؤال هنا: ما حكم التبرك والتماس البركة من المخلوق وغيره.

وللجواب عن هذا السؤال: نقول: لا يجوز للعبد أن يلتمس البركة من أي شيء إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يثبت بالنص الصحيح الصريح: أن هذا الشيء مبارك.

والشرط الثاني: أن يثبت بالنص الصحيح أن الشرع أجاز للعبد أن يلتمس البركة من هذا الشيء.

وإذا علم العبد هذين الشرطين = سلك السبيل الصحيح، والطريق الشرعي في التماس البركة.

---

(٤٣١) البخاري في صحيحه (٥٦٣٩).

(٤٣٢) مقاييس اللغة، لابن فارس: ٢٢٧/١، النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ١٢٠/١، تهذيب اللغة للأزهري: ١٣١/١٠، مفردات ألفاظ القرآن، للراغب: ٨٣/١.

وبناء على ما سبق، فإن التبرك بالشيء نوعان: تبرك مشروع، وتبرك ممنوع.

النوع الأول: التبرك المشروع، وهو: ما ورد الشرع بجوازه ومشروعيته:

ومما ورد وصف القرآن الكريم له بأنه مبارك:

١-القرآن الكريم، فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أن القرآن العظيم كتاب مبارك، فقال جل وعلا: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾ الأنعام (١٥٥).

وقال سبحانه: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ ص (٢٩).

وقد دلت هاتان الآيتان على أن التماس بركة القرآن العظيم إنما تكون بقراءته، وتدبره، واتباعه بالعمل به، فمن تحقق بذلك، كان القرآن شفاء له في الدنيا لأمراضه الحسية والمعنوية، وشفيعاً له يوم القيامة، وكان من أهل الجنة، ولا يمكن أن يظن عاقل أن التبرك بالقرآن الكريم يكون بتعليقه على الجدران، وحمله في الحقائب، ووضعه في البيوت على الرفوف، أو وضعه في السيارات، فكل هذا لا علاقة له بالتبرك المشروع، وهو من أفعال الجاهلين.

٢-نبي الله عيسى بن مريم ﷺ فقد قال الله تعالى عنه: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ مريم (٣١).

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠) رحمه الله تعالى: قال بعضهم: جعلني نفّاعاً ... وقال آخرون: كانت بركته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وقال آخرون: جعلني معلما للخير حيثما كنت[٤٣٣].

وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦) رحمه الله تعالى: قال عطاء: أدعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته، وقيل: مباركاً على من تبعني[٤٣٤].

قلت: وبركة أولياء الله الصالحين إنما تكون بنفعهم للخلق، وتعليمهم الناس الحق، وما قد يدفع الله من البلاء والعذاب بسببهم، وهذا حق، وأما قول بعض الناس مثلاً: لما نزل فلان بنا حلت علينا البركة، أو نزلت علينا البركة، فهذا الكلام صحيح باعتبار باطل باعتبار، فإن أراد أنه لما نزل بنا علمنا وأرشدنا، فببركة اتباعه

---

(٤٣٣) جامع البيان، سورة مريم، آية (٣١).

(٤٣٤) معالم التنزيل، سورة مريم، آية (٣١).

حصل لنا هذا الخير، أو ببركة دعائه صرف الله عنا البلاء وحصل لنا الخير، فهذا حق، وإن أراد أن فيه بركة ذاتية انتقلت منه إلينا، فباطل والله المستعان.

والأصل أن المسلم مبارك، وسبب هذه البركة اتباعة للنبي ﷺ وعمله بشريعة الله تعالى، وإذا علّم غيره وأرشده لما فيه الخير، فهذه بركة عظيمة عليه وعلى غيره، وإنما الغلط الذي يغلط فيه كثير من المسلمين في هذا الباب: التماس البركة وطلبها على غير الوجه المشروع، كما نرى من يتمسح بالأشياخ، ويقبلهم، أو يتمسح بقبور ومشاهد من يُسمّون بالأولياء، أو ينزل في بعض الأماكن، أو يتمسح ببعض المساجد، وغير ذلك، ظناً منهم أن البركة تحل بهم إذا فعلوا ذلك.

٣-الكعبة البيت الحرام، قال الله تعالى: ﴿إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾ آل عمران (٩٦).

قال الإمام أبو حيان محمد بن علي بن يوسف الأندلسي (ت٧٤٥) رحمه الله تعالى: أما بركته: فلما يحصل فيه من الثواب، وتكفير السيئات لمن حجه واعتمره وطاف به وعكف عنده. وقال القفال: يجوز أن تكون بركته، ما ذكر في قوله ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ القصص (٥٧) وقيل: بركته دوام العبادة فيه ولزومها ... وقيل: بركته، تضعيف الثواب فيه... وقيل: بركته أن من دخله أمن حتى الوحش، فيجتمع فيه الظبي والكلب[٤٣٥].

قلت: وما يفعله بعضهم ممن يمسح بيديه جدار الكعبة، وكسوتها، ومقام إبراهيم، وجدران المسجد الحرام، واسطواناته، ومسح وجوههم وأجسادهم بعد ذلك، ظانين أن البركة تنتقل إلى أجسامهم فيصبحون مباركين، فهذا من الجهل القبيح والضلال المبين في التماس بركة البيت الحرام.

٤-شجرة الزيتون، قال الله تعالى ﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة﴾ النور (٣٥).

قال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦) رحمه الله تعالى: أي من زيت شجرة مباركة، وأراد بالشجرة المباركة: الزيتونة، وهي كثيرة البركة، وفيها منافع كثيرة، فالزيت يُسرج به، وهو أضوأ وأصفى الأدهان، وهو إدام وفاكهة ... وقال رسول الله ﷺ (كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة)[٤٣٦].

---

(٤٣٥) البحر المحيط، سورة آل عمران، آية (٩٦).

(٤٣٦) معالم التنزيل، سورة النور، آية (٣٥) والحديث في الترمذي في سننه (١٨٥١) وقال بعضهم: حسن لغيره.

قلت: والتماس البركة بهذا الزيت، إنما يكون باستعماله في هذه المنافع التي ذَكرها العلماء، ومنها المذكورة هنا، ولا يكون بشيء آخر، كما لو تمسح أحدهم بهذه الشجرة، أو أخذ غصناً من أغصانها، وجعله في بيته؛ ظاناً أن البركة تنتقل من الشجرة إليه، أو إلى بيته، أو غير ذلك من التصرفات، فقد أخطأ وجَهِل.

٥-البقعة المباركة التي كلم الله تعالى فيها نبيه موسى ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿فلما أتاها نودي من شطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة﴾ القصص (٣٠).

قال الإمام أبو الحسن علي بن محمد الماوردي البغدادي (ت٤٥٠) رحمه الله تعالى: واحتَمل وصفُها بالبركة وجهين:

أحدهما: لأن الله كلم فيها موسى وخصه فيها بالرسالة.

والثاني: أنها كانت من بقاع الخصب، وبلاد الريف[٤٣٧] .

قلت: وقد جاء في آية أخرى وصف الوادي بالمقدس، كما قال تعالى: ﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى﴾ طه (١٢).

وهذا مثل ما جاء في قوله تعالى ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾ الإسراء (١).

فالله تعالى بارك حوله بالأنهار والأشجار والثمار، وقيل: لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي، ومنه يُحشر الناس يوم القيامة[٤٣٨] .

وهذه البقاع المباركة والمقدسة، لا تقدس أحداً، ولا تبارك أحداً، وإنما بركتها فضل من الله تبارك وتعالى على خلقه، وليستشعروا أنهم في أماكن باركها الله تعالى، ومن أراد الخير والبركة فليتبع المرسلين بصدق وإخلاص، ومن مات في هذه البقاع المباركة، ولم يكن من أهل التوحيد، فلا فرق بينه وبين من يموت في أقاصي الأرض.

٦-ماء المطر، قال الله تعالى: ﴿ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد﴾ ق (٩).

والمعنى أن هذا الماء النازل من السماء كثير الخير، وفيه حياة كل شيء، ولذا قال في الآية ﴿فأنبتنا به جنات وحب الحصيد﴾ وقد روى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ حسر

(٤٣٧) النكت والعيون، سورة القصص، آية (٣٠).

(٤٣٨) معالم التنزيل، سورة الإسراء، آية (١٠٠).

ثوبه حتى أصابه من المطر، فقلنا: يا رسول الله، لم صنعت هذا؟ قال: (لأنه حديث عهد بربه)[٤٣٩] .

قال الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي (ت٦٥٦) رحمه الله تعالى: وهذا منه ﷺ تبرك بالمطر، واستشفاء به؛ لأن الله تعالى قد سماه رحمة، ومباركاً، وطهوراً، وجعله سبب الحياة[٤٤٠].

فمن حرص على التعرض للمطر، والإصابة منه بالغسل، أو الشرب، تبركاً به فلا بأس عليه، ولا حرج، مع تعلق القلب بالله تبارك وتعالى، وقد رأينا بعضهم يتعرض لماء المطر النازل من ميزاب الكعبة، ولا ندري هل هم يريدون التبرك بماء المطر ولكونه يجتمع في الميزاب، أم يريدون التبرك بهذا الماء لأنه لامس سطع الكعبة، فإن قصدوا الأول فلا حرج، وإن قصدوا الثاني، فذلك عمل لا أصل له، وهو من المحدثات.

ومما جاء في السنة مما شرع التبرك به:

١-**التبرك بالنبي** ﷺ: ويشمل:

أولاً: التبرك بذاته الشريفة، فقد كان خَدم أهل المدينة يأتون بآنيتهم، فيغمس يده الشريفة فيها[٤٤١] وكانوا يأخذون يديه الشريفتين فيمسحون بها وجوههم[٤٤٢].

ثانياً: التبرك بما انفصل منه ﷺ ومن ذلك:

-التبرك بشعره ﷺ فقد كان النبي ﷺ يحلق رأسه، ويعطيه الناس[٤٤٣].

-التبرك بريقه ﷺ فقد كان يحنك الطفل بعد ولادته[٤٤٤] وجاء في حديث صلح الحديبية: والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه

---

(٤٣٩) مسلم في صحيحه (٨٩٨).

(٤٤٠) المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم: ٢:٥٤٦، وانظر: صحيح البخاري برقم (١٠٣٣) (فصل من تمطر في المطر حتى يتحادر على لحيته).

(٤٤١) مسلم في صحيحه (٢٣٢٤).

(٤٤٢) البخاري في صحيحه (٣٥٥٣) ومسلم في صحيحه (٥٠٣).

(٤٤٣) مسلم في صحيحه (١٣٠٥) وانظر: صحيح البخاري (١٧١) وصحيح مسلم (٢٣٢٥).

(٤٤٤) البخاري في صحيحه (٣٩٠٩) ومسلم في صحيحه (٢١٤٦).

وجلده[٤٤٥] ودعا ﷺ بقدح فيه ماء، فغسل يديه ووجهه، ومجّ فيه، ثم قال لهما: اشربا، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما[٤٤٦].

-التبرك بعرقه ﷺ فقد أخذت أم سليم عرقه ﷺ وجعلته في قارورة، وقالت يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، فقال (أصبت)[٤٤٧] .

ثالثاً: التبرك بملابسه، وماء وضوئه ﷺ.

-فقد طلب أحدهم من النبي ﷺ بردته، فأعطاه إياها، وقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلّي أكفن فيها[٤٤٨].

-وتوضأ النبي ﷺ فجعل الناس يأخذون من فضل وَضوئه، ويتمسحون به[٤٤٩] وجاء أنه ﷺ إذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه[٤٥٠].

رابعاً: التبرك بآثاره بعد وفاته ﷺ.

فقد أخبرت أسماء بنت أبي بكر، وكان عندها جبة للنبي ﷺ أخذتها بعد وفاة عائشة رضي الله عنها، وكانت تقول: نغسلها للمرضى يُستشفى بها[٤٥١].

-وكان عند أم سلمة رضي الله عنها شعر من شعر النبي ﷺ فكان من اشتكى يرسل إناء إلى أم سلمة، فتجعل فيه تلك الشعيرات، فتغسلها فيه، فيشرب المشتكي من ذلك الماء الذي غسلت فيها تلك الشعيرات[٤٥٢].

ونحن في هذا الزمان نعتقد أنه لم يبق شيء من آثار النبي ﷺ ومن زعم بقاء شيء من ذلك فعليه أن يثبت ذلك، ودون إثباته خرط القتاد.

---

(٤٤٥) البخاري في صحيحه (٢٧٣١).

(٤٤٦) البخاري في صحيحه (١٨٥).

(٤٤٧) البخاري في صحيحه (٦٢٨١) ومسلم في صحيحه (٢٣٣١).

(٤٤٨) البخاري في صحيحه (٦٠٣٦).

(٤٤٩) البخاري في صحيحه (١٨٥).

(٤٥٠) البخاري في صحيحه (٢٧٣١).

(٤٥١) مسلم في صحيحه (٢٠٦٩).

(٤٥٢) البخاري في صحيحه (٥٨٩٦).

فلم يبق لنا إلا أن نتبرك بطاعته، واتباع سنته، وكل من آمن بالنبي ﷺ وجاهد نفسه على اتباعه، والاقتداء بسنته، فإنه يحصل له من الخير والبركة بقدر ذلك، والله المستعان.

٢-**ماء زمزم**، وهذا الماء ورد فيه أحاديث، منها قوله ﷺ: (إنها مباركة، إنها طعام طُعم)[٤٥٣].

والتماس بركة ماء زمزم إنما يكون بشربه، والاستشفاء بذلك، والاغتسال به، ولاسيما للحمّى، فقد قال ابن عباس لأبي جمرة الضُّبعي وقد أخذته حمى: أبردها عنك بماء زمزم[٤٥٤] وكذا مسح الوجه واليدين، أما التبرك بما زمزم على غير هذا النحو، كمن يغسل به الملابس، ونحو ذلك التماساً للبركة، فهذا عمل لا أصل له.

النوع الثاني: التبرك الممنوع، وهو: التبرك بما لم يرد الشرع بجواز التبرك به، وقد غلط في هذا أقوام فالتمسوا البركة وطلبوها بأهوائهم وقياساتهم الفاسدة، دون مراعاة لما تقدم من شروط التبرك الصحيح، وقد تقدم التنبيه على شيء من ذلك.

ومن التمس البركة وتبرك بما لا دليل على التبرك به، فلا يخلو تبركه إما أن يكون تبركاً شركياً، أو تبركاً بدعياً.

فأما التبرك الشركي، فهو: أن يتبرك العبد بمخلوق، سواء كان حيواناً أو جماداً، معتقداً أن هذا المتبرك به يهب البركة بنفسه، فيبارك في الأشياء بذاته استقلالاً، فهذا من الشرك الأكبر، والعياذ بالله تعالى.

وأما التبرك البدعي فهو: أن يتبرك العبد بمخلوق، معتقداً أن الله تعالى جعل فيه بركة، وأن التبرك به قربة إلى الله تعالى نافعة، أو التبرك بالشيء في غير موضعه المأذون به شرعاً، فهذا كله تبرك ممنوع وهو محرم؛ لأنه يتضمن عبادة لا دليل عليها، وهو من الشرك الأصغر؛ لأنه جعل ما ليس سبباً للبركة سبباً لها.

وصور هذا النوع من التبرك الممنوع كثيرة جداً، ومن ذلك:

التبرك بالدعاء عند قبر النبي ﷺ معتقداً أن دعاء الله تعالى عند قبر النبي ﷺ له مزية، أو أنه مستجاب، ولم يكن الصحابة الكرام ﷺ يتحرون بدعائهم الحضور عند قبر النبي ﷺ.

---

(٤٥٣) البخاري في صحيحه (٢٤٧٣).

(٤٥٤) البخاري في صحيحه (٣٢٦١).

ومن ذلك: التبرك بأداء بعض العبادات عند قبر النبي ﷺ وتلاوة القرآن، باعتبار أن هذا العمل عند القبر يكون مباركاً.

ومن ذلك: التبرك بالتمسح بقبر النبي ﷺ أو الحجرة النبوية، أو جدار الكعبة، أو كسوتها، أو مقام إبراهيم، وأما مسح الحجر الأسود وتقبيله، ومسح الركن اليماني من غير تقبيل، فقد ورود النص به.

وقد يحصل من بعض من يأتي إلى مسجد النبي ﷺ بعض الممارسات البدعية عند قبر النبي ﷺ وقد تخرج ببعضهم إلى أمور خطيرة والعياذ بالله.

وقد تتابعت كلمات العلماء من زمن قديم، في التحذير من هذه الأفعال التي يفعلها بعض الجهلة عند قبر النبي ﷺ وعند قبر غيره، ومن ذلك:

قال العلامة خليل بن إسحاق المالكي (ت٧٧٦) رحمه الله تعالى وهو يتكلم عن قبر النبي ﷺ:

روى ابن وهب في المختصر قال: سُئل مالك: من أين يقف من أراد التسليم؟ فقال: من عند الزاوية التي تلي القبلة، مما يلي المنبر، ويستقبل القبلة، ولا أحب أن يمس القبر بيده[٤٥٥].

وقال الإمام أبو حامد، محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥) رحمه الله تعالى: ليس من السنة أن يمس الجدار، ولا أن يقبّله، بل الوقوف من بُعد أقرب للاحترام ... فإن اللمس والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود[٤٥٦].

وقال الإمام أبو الحسن محمد بن مرزوق الزعفراني (ت٥١٧) رحمه الله تعالى: وضع اليد على القبر ومسّه وتقبيله، من البدع التي تُنكر شرعاً، وقد أنكره مالك والشافعي وأحمد أشد الإنكار[٤٥٧].

وقال الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت٥٢٠) رحمه الله تعالى: لا يتمسح بقبر النبي ﷺ ولا يمسح كذلك المنبر[٤٥٨].

---

(٤٥٥) التوضيح في شرح مختصر ابن الحاجب: ١٠١/٢.

(٤٥٦) إحياء علوم الدين: ٢٥٩/١، ٢٧١.

(٤٥٧) وفاء الوفاء، للسمهودي: ٢١٥/٤.

(٤٥٨) الحوادث والبدع: ص: ١٥٦.

وقال الشيخ أبو محمد عبد القادر بن موسى الجيلاني (ت٥٦١) رحمه الله تعالى: وإذا زار قبراً لا يضع يده عليه، ولا يقبله، فإنها عادة اليهود[٤٥٩].

وقال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦) رحمه الله تعالى: قالوا: ويكره مسحه، أي: قبر النبي ﷺ باليد وتقبيله، ولا يُغتر بمخالفة كثيرين من العوام وفعلهم ذلك، فإن الاقتداء والعمل إنما يكون بالأحاديث الصحيحة، وأقوال العلماء، ولا يُلتفت إلى محدثات العوام وغيرهم، وجهالاتهم، ومن خطر بباله أن المسح باليد ونحوه أبلغ في البركة، فهو من جهالته وغفلته؛ لأن البركة إنما هي فيما وافق الشرع[٤٦٠].

وقال العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد الفاسي المالكي، المعروف بابن الحاج (ت٧٣٧) رحمه الله تعالى: فترى من لا علم عنده يطوف بالقبر الشريف، كما يطوف بالكعبة، ويتمسح به، ويقبله، ويلقون عليه مناديلهم وثيابهم، يقصدون به التبرك، وذلك كله من البدع؛ لأن التبرك إنما يكون بالاتباع له عليه الصلاة والسلام، وما كان سبب عبادة الجاهلية للأصنام إلا من هذا الباب[٤٦١].

وقال العلامة تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٥٦) رحمه الله تعالى: وإنما التمسح بالقبر وتقبيله، والسجود عليه، ونحو ذلك، فإنما يفعله بعض الجهال، ومن فعل ذلك ينكر عليه فعله ذلك[٤٦٢].

قلت: ومن ذلك: التبرك بالمواضع التي جلس فيها النبي ﷺ أو صلى فيها وهو سائر في طريق، أو تعبد فيها، من غير قصد لذات المكان، كغار حراء، وجبل ثور، وجبل عرفات، والأماكن التي مر بها النبي ﷺ في أسفاره، والمساجد السبعة التي قرب الخندق، وغير ذلك من الأمكنة التي ورد أن النبي ﷺ جلس فيها، أو صلى فيها وهو لم يقصدها لذاتها، وإنما وافق مروره عليها، فلا يشرع لأحد أن يذهب إليها، أو يتعبد فيها بعبادة رجاء البركة، فإن الصحابة الكرام ﷺ والسلف الصالح لم يفعلوا ذلك، ولا نُقل عنهم.

ومن ذلك: التبرك ببعض من يظنهم العبد من الصالحين، كما يمارسه بعض ضعفاء العقول مع هؤلاء، معتقدين أن في هؤلاء الأشياخ بركة تحل فيهم

---

(٤٥٩) الغنية لطالبي طريق الحق: ٩١/١.

(٤٦٠) المجموع: ٢٧٥/٨.

(٤٦١) المدخل: ٢٦٣/١.

(٤٦٢) شفاء السقام: ص: ٣١٢.

بملامستهم، والتمسح بهم، أو تقبيلهم، أو أكل ما بقي من طعامهم، أو شرب ما بقي من ماء شربوه، أو التمسح بما تقاطر من الماء عن أجسادهم، وغير ذلك من الصور التي يمارسها من غلط في هذا الباب هذا إذا كان هؤلاء الصالحين من الأحياء، وإن كانوا من الأموات ذهبوا إلى قبورهم؛ طلباً لبركة الدعاء عندها، وربما تجاوز ذلك إلى سؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات.

قال الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١) رحمه الله تعالى: تجد أقواماً كثيرة من الضالين، يتضرعون عند قبور الصالحين، ويخشعون ويتذللون، ويعبدونهم بقلوبهم، عبادة لا يفعلونها في بيوت الله المساجد، بل ولا في الأسحار بين يدي الله تعالى، ويرجون من الصلاة عندها والدعاء، ما لا يرجونه في المساجد التي تُشدّ إليها الرحال! فهذه المفسدة هي التي حسم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقا، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة، ولا ذلك المكان، سداً للذريعة إلى تلك المفسدة التي من أجلها عُبدت الأوثان[٤٦٣].

وقال أيضاً، وهو يتكلم عن الصلاة عند القبور: إن قصد الإنسان الصلاة عندها، أو الدعاء لنفسه في مهماته وحوائجه، متبركاً بها، راجياً للإجابة عندها، فهذا عين المحادة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه وشرعه، وابتداع دين لم يأذن به الله ولا رسوله، ولا أئمة المسلمين المتبعين آثاره وسنته[٤٦٤].

وشبهة هؤلاء الفاعلين لهذا الأفعال المخالفة، ومن يُؤصل لهم ذلك، قياسهم هؤلاء الذين يظنونهم من الصالحين على النبي ﷺ فيرون نتيجة هذا القياس غير الصحيح: أن ما يجوز فعله مع النبي ﷺ يجوز مع الصالحين من أمته، وهذا قياس باطل، فللنبي ﷺ خصوصيات ليست لغيره كما هو معلوم، ولو كان غير النبي ﷺ مثله في هذا الباب؛ لوجدنا الصحابة ﷺ يسارعون إلى مثل ذلك التبرك مع المبشرين بالجنة، وغيرهم من سادات الصحابة الأطهار ﷺ ولكنهم لم يكونوا يفعلون ذلك، فلم يُنقل إلينا أن صحابياً تبرك بصحابي أبداً، ولم يُنقل إلينا أن التابعين كانوا يتبركون بالصحابة ﷺ وإنما هذه أمور حدثت في الأمة، بعد ظهور طوائف الصوفية المبتدعة التي اجتالت الناس عن التوحيد، وبدلت كثيراً من أمور الدين، ونشأ بسببها الغلو في الصالحين، نسأل الله تعالى العفو والعافية[٤٦٥].

---

(٤٦٣) الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع: ص: ١١٨.

(٤٦٤) الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع: ص: ١١٨.

(٤٦٥) انظر: السنن والمبتدعات، للشقيري: ص:١٧١، عمدة الكلام في إثبات التوسل والتبرك بخير الأنام، لجميل الحسيني: ص:٨، معجم مصطلحات الصوفي، لممدوح الزويبط (٧٦٧٧) مفاهيم يجب أن تصحح، لمحمد المالكي (١٥٦).

قال الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠) رحمه الله تعالى: فتَرْكُ الصحابة فعل التبرك مع غير النبي ﷺ = يُعدّ إجماعاً منهم على تحريم التبرك بغيره ﷺ من الصالحين وغيرهم(٤٦٦).

وقد يكون هذا المسكين الذي يلتمس بركة من يظنه صالحاً، خيراً في دينه وسلوكه من هذا الذي يلتمس البركة منه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهؤلاء الذين يرون الناس يتبركون بهم، لا ينهون أحداً عن ممارسة هذه الأفعال معهم، لأنهم يجدون في ذلك لذة عاجلة من التقديس والتعظيم والخدمة، وربما يحصلون على مكاسب مادية من وراء هؤلاء الجهال، وربما لبس عليهم الشيطان بأسباب تبرك الغير بهم، فظنوا أنهم من الصالحين، وأنهم عند الله تعالى من المقبولين، ففرطوا في الطاعة والعمل.

ومن ذلك: التمسح بجدار الكعبة، وغيرها.

قال العلامة أبو الحسن علي بن محمد النوري الصفاقسي (ت١١١٨) رحمه الله تعالى، بعد أن ذكر أشياء مخالفة للشرع تفعل عند قبر النبي ﷺ: ومن هذا المعنى التمسح بجدار الكعبة وتقبيلها، وبالمصحف الشريف، ويبالغ بعض العوام حتى يفعل ذلك بالمساجد وقبور الأولياء، وليس هذا كله بتعظيم شرعي، بل التعظيم الشرعي للكعبة الطواف بها، والصلاة إليها، وتعظيم المصحف قراءته، والعمل بما فيه، وتعظيم المسجد تعميره بالصلاة وأنواع العبادات(٤٦٧).

وصور التبرك كثيرة واستيعابها لا يتناسب مع هذا الكتاب المختصر، وما ذكرته هنا يدل على غيره، والله الموفق للصواب.

فعلى كل مسلم أن يعي مثل هذه المسائل، ويتفقه في دينة، ويطلب العلم من مظانه، ويسأل العلماء الربانين عما أشكل عليه من دينه، وليحذر التقليد الأعمى لكل أحد.

تم بحمد الله، وأسأل الله الكريم العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل ما ذكرت في هذا المختصر صواباً خالصاً لوجهه الكريم، نافعاً لعباد الله، فقد اجتهدت في تحري الحق فيما ذكرت، فما كان فيه من صواب فهو من توفيق الله وحده وله الحمد والشكر على ذلك، وما كان فيه من خطأ غير مقصود فأسأل الله تبارك وتعالى أن يعفو عني، ومن وجد عيباً أو خللاً فليدلني عليه، ورحم الله امرأ

---

(٤٦٦) الاعتصام: ١/٤٨٢، وانظر: الحكم الجديرة بالإذاعة: ص:٤٦.

(٤٦٧) الأجوبة الكافية عن الأسئلة الشامية، للحيدري التونسي: ص: ١٥٩.

أهدى إلي عيباً، أو دعا لي دعوة بظهر الغيب، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله صحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة

الجمعة: ٢٣/ ١١/ ١٤٤٥

فهرس الموضوعات